

مجموعة نقشجم العلميّة

إصدراة رقم (٣٨)

فتح الرشيد

في شرح منجية العبيد

للإمام السيد محمد عثمان الميرغني الختم

شرح

الشيخ مبارك محمد سعيد عثمان بركات

فتح الرشيد

في شرح منجية العبيد

للإمام السيد محمد عثمان الميرغني الختم

شرح

الشيخ مبارك محمد سعيد عثمان بركات

شوال ١٤٤٣هـ - مايو ٢٠٢٢م

يمكنكم مراسلتنا، عبر البريد الإلكتروني: ngshjm@yahoo.com

أو عبر صفحة مجموعة نقشجم العلمية، على الفيسبوك: facebook.com/ngshjm

تَرْجَمَةُ الْمُؤَلِّفِ

السَّيِد مُحَمَّد عُثْمَان الْمِيرْغَنِيّ الْخَتْم رَضِيَ اللهُ عَنْهُ

نسبه:

هو أبو محمد وعبد الله الشريف الحسيني الحسني المكي السيد محمد عثمان الميرغني الختم ابن السيد محمد أبو بكر ابن السيد عبد الله الميرغني المحجوب ابن السيد إبراهيم ابن السيد حسن ابن السيد محمد أمين ابن السيد علي الميرغني ابن السيد حسن ابن السيد ميرخورد ابن السيد حيدر ابن السيد حسن ابن السيد عبد الله ابن السيد علي ابن السيد حسن ابن السيد أحمد ابن السيد علي ابن السيد إبراهيم ابن السيد يحيى ابن السيد حسن ابن السيد أبي بكر ابن السيد علي ابن السيد محمد ابن السيد إسماعيل ابن السيد ميرخورد البخاري ابن السيد عمر ابن السيد علي ابن السيد عثمان ابن الإمام علي التقي ابن الإمام حسن الخالص ابن الإمام علي الهادي ابن الإمام محمد الجواد ابن الإمام علي الرضي ابن الإمام موسى الكاظم ابن الإمام جعفر الصادق ابن الإمام محمد الباقر ابن الإمام علي زين العابدين ابن الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ وَرَضِيَ عَنْهُ وَعَنْ بَنِيهِ أَجْمَعِينَ. وهو أيضًا ابن سيدة نساء العالمين وبضعة خير البرية السيدة فاطمة الزهراء رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنْهَا وَأَرْضَاهَا آمِينَ.

مولده: ولد رَضِيَ اللهُ عَنْهُ في الطائف بالأراضي المقدسة، في قرية السلامة في شهر ربيع الخير عام ١٢٠٨ هجرية.

من تلقى عنهم العلم: أخذ عن والده السيد محمد أبي بكر إلى أن بلغ العاشرة من عمره حيث توفى والده عام ١٢١٨هـ بالطائف، فكفله عمه السيد يس الميرغني، وكان أحد أئمة الإسلام بمكة المكرمة وأعلامها، تلقى عنه كل ما

يحتاج إليه من علوم الدين، بعد أن أكمل حفظ القرآن بالروايات والتجويد، كالفقه، والأصول، والحديث والتفسير، والكلام، والنحو وغيره.

وجلس للافتاء والتدريس بالحرم الشريف بمكة المكرمة، وعمره ما بين الثالثة عشر والرابعة عشر.

وقد ترجم له الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير في كتابه "نشر النور والزهر في تراجم أفاضل مكة من القرن العاشر إلى القرن الرابع عشر" الجزء الثاني فقال: (السيد محمد عثمان الميرغني الشهير بالختم ابن السيد محمد أبي بكر ابن العارف بالله السيد عبد الله المحجوب ابن السيد إبراهيم ميرغني المكي الحسيني الحنفي شيخ طريقة الميرغنية بمكة. ولد بمكة المشرفة سنة ١٢٠٨هـ. وقرأ العلوم على عمه السيد يس ميرغني وغيره من مشايخ العصر. وتصدر بالمسجد الحرام للإقرأ والتدريس، ولما ورد ولي الله العلامة السيد أحمد بن إدريس لازمه وأخذ عنه الطريقة الشاذلية. وكانت وفاته بالطائف سنة ١٢٦٨هـ لخمس بقين من شوال، وقيل لاثنين وعشرين من الشهر المذكور، ثم نقل إلى مكة من طريق كرا ودفن بالمعلا يوم الإثنين بعد العصر. اهـ كلام الشيخ عبد الله مرداد أبو الخير.

وممن ترجم له أيضًا العلّامة يوسف بن إسماعيل النبهاني في كتابه "جامع كرامات الأولياء". وترجم له أيضًا العلّامة الخليفة أحمد بن إدريس النصيح في كتابه "الإبانة النورية". وكذا ترجم له الأستاذ الجليل محمد بن عبد المجيد السراج في كتابه "المناهج العلية في تراجم السادة الميرغنية". كما ترجم له كثير من المؤرخين وأصحاب الطبقات في عديد من المؤلفات، ومدحه كثير من العلماء أصحاب الدواوين في الحجاز واليمن، ومصر، والسودان بقصائد جامعة لكثير من مناقبه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وتلقى علوم الحقيقة عن مشايخ كثيرين منهم الشيخ أحمد بناه، والشيخ سعيد العامودي، ومولانا الشيخ أحمد عبدالكريم الهندي، والسيد أحمد بن عبد الكريم الأزبكي، وأخيرًا عن شيخه العارف بالله ذي التقديس السيد أحمد بن إدريس، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ.

نشره للدعوى الإسلامية:

لما بلغ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من العمر خمسة وعشرين عامًا وبعد أن تصدر للإفتاء والتدريس بالحرم المكي الشريف، انصرف لنشر الدعوة الإسلامية، فقام بأربع رحلات طويلة وشاقة في مختلف البلاد، قاسى فيها ما قاسى من التعب وشدة المشاق، فشدَّ العزم وصبر، وواصل جهاده فوفقه الله تعالى وكتب له النجاح والظفر حيثما توَّجه وأينما حلَّ حتَّى تمكن بفضل الله ورحمته من هداية كثير من النصارى والوثنيين ومن لم تبلغهم الدعوة إلى اعتناق الإسلام والتمسك بتعاليمه، ونشر العلم والمعرفة بينهم بفتح الخلاوى لتحفيظ القرآن الكريم، وبناء المساجد لإقامة الصلوات، وتدريب الوعَّاظ والمرشدين من الفقهاء والحفاظ وتنظيم مجتمعاتهم على تعاليم السنة الغراء. وخير شاهد على ذلك تمسك المسلمين في هذه البلاد وفي تلك بمنهاجه وطريقته.

والبلاد التي قام برحلاته المذكورة إليها هي:

١. بلاد اليمن، ثم مصوع، وبلاد الحبشة وما جاورها، حيث مكث نحو العامين في هذه الرحلة يدعو إلى الله تعالى. ثم عاد إلى مكة المكرمة.

٢. وبعد وصوله إلى مكة بوقت قصير قام برحلته الثانية إلى صعيد مصر، ومنها ارتحل إلى شمال السودان، سالكًا طريق النيل من جهة حلفا والسكوت والمحس ودنقلا، إلى أن وصل بلدة الدبة. وقد نجحت دعوته بوادي النيل نجاحًا باهرًا.

توجه بعد ذلك إلى كردفان حيث وصل مدينة الأبيض ثم مدينة بارا ثم نواحي كردفان الأخرى وجنوبه، يدعو للإسلام والتمسك بكتاب اللّٰه وسنة رسوله صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

ومنها اتجه إلى سنار وما جاورها، مواصلاً دعوته وجهاده في سبيل نصرة الإسلام. ومنها سافر إلى بلاد الجعليين والرباطاب بشمال السودان حيث أقام وقتًا بمدينة شندي، والمتمة، والدامر، وأم الطيور، وأتبرا وغيرها.

ثم اتجه إلى شرق السودان سالكًا طريق نهر أتبرا، لما عليه من كثرة السكان حتى بلغ مدينة كسلا، واستقر بجبال التاكا مدة بقريته السُّنية المعروفة الآن بالختميَّة.

ثم ارتحل إلى بلاد إرتريا، وفي وقت قصير تمكن من تعميم الدعوة بها واعتناق أهلها الإسلام. ثم عاد إلى مكة للمرة الثانية.

٣. قام برحلته الثالثة إلى السودان عن طريق مصوع، واستقر بمدينة كسلا وقتًا طويلاً بقريته آنفة الذكر، والتي اتخذها مقرًا لتنظيم نشاطه الإسلامي، وتثبيت دعوته الإرشادية، التي امتدت من الحجاز إلى بلاد البرقو غربًا، ومن صعيد مصر إلى سنار وجبال الإنقسنا، ومن مصوع إلى سواحل أرض الصومال وبلاد الهند والسند، وعمت جميع نواحي إرتريا وبلاد السودان.

فكان رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ يرسل السرايا والوفود من الوعَّاظ والمرشدين ومن خلفائه وتلامذته إلى تلك النواحي، وذلك بعد تأهيلهم علميًّا وتزويدهم بما يحتاجون إليه من توجيه ونصائح وإرشادات. فصارت تلك القرية بحمد اللّٰه مركزًا يشع منه نور الإسلام بين تلك الأقطار وهذه إلى يومنا هذا. وارتفعت راية الإسلام خفاقة، وانتشرت المساجد والمعاهد في كل مدينة وقرية، وعمّرت بالصلوات ونشطت العبادات، وانعقدت مجالس العلم والذكر، فصار حفظ كتاب

الله تعالى أول مناهج التعليم لطالب العلم، وما أكثر الذين حفظوه ثم عملوا به في ذلك الوقت حتى صار إرثًا في كثير من البيوت إلى يومنا هذا. ثم انتقل إلى الحجاز مرة ثالثة.

٤. قام برحلته الرابعة إلى مدينة سواكن الواقعة على شاطئ البحر الأحمر بشرق السودان، ومكث بها مدة تمكن من تعميم الدعوة بها وجعلها أيضًا مركزًا لنشر الدعوة الإسلامية، وشيَّد فيها مساجده الثلاثة المسماة بمسجد الأسرار، ومسجد الأنوار، ومسجد الأبرار، وجعلها معاهد ذات مراحل ثلاث لنيل جميع الفنون من علوم الدين الضرورية للمسلم، كما شيَّد مسجدًا آخر جعله خاصًّا لتعليم النساء، وكان لمعهد تعليم المرأة هذا أثره الواضح في المعرفة المنتشرة اليوم بشرق السودان بين النساء من حفظ للقرآن ومعرفة لمبادئ الفقه وغيره ومباشرة تعليم أطفالهن.

عودته إلى مكة المكرمة للمرة الرابعة والأخيرة:

وأخيرًا عاد الأمام الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى مكة المكرمة، وذلك بعد أن استخلف ابنه القطب الأعظم مولانا الإمام السيد محمد الحسن الميرغني لحمل الراية من بعده، فتحملها رَضِيَ اللَّهُ عَنْهً بصلابة وعزم شديدين، وكان أول عمل قام به الإمام السيد محمد الحسن هو الطواف العام على جميع مدن وقرى السودان لأجل توحيد صفوف المسلمين وجمع شملهم على كلمة لا إله إلا الله محمد رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وقد نجح في ذلك نجاحًا باهرًا، كان له أثر طيب في التصدي والوقوف صفًّا واحدًا أمام زحف دهات المبشرين والمستشرقين الذين تغلغلوا بين صفوف الأمة بأساليبهم الماكرة لنشر الكفر والضلال بين العباد، وبفضل هذه الوحدة الإسلامية من أهل الطرق الصوفية

بالسودان لم يتمكن حتى اليوم هؤلاء المضلِّين من تحقيق أي غرض من أغراضهم الدنيئة، تلك الوحدة التي حافظ عليها أبناؤه من بعده إلى يومنا هذا.

مؤلفاته:

وقد وجه الإمام الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عنايته للتآليف النافعة والضرورية للمسلم في حياته اليومية. وقد اتسمت مؤلفاته بالوضوح وسهولة اللفظ، والإيجاز البليغ، وحسن التعبير، نظمًا ونثرًا بما يتناسب مع إدراك العامة، وفهم الخاصة، وذوق خاصة الخاصة من العلماء والعارفين، أخرجها مما اتفق عليه الإجماع من الأمة المحمدية من تفاسير وصحاح ومسانيد وما أورده ثقاة الرواة بطرق الإحسان.

فجاءت مؤلفاته مقبولة لا طعن فيها ولا لبس كما نراه اليوم، متداولة بين الناس على اختلاف مذاهبهم ومشاربهم وفي جميع الأقطار. نشير إلى أن معظم هذه المؤلفات مازال مخطوطًا، وسيتم طبعها ونشرها قريبًا بإذن اللَّه تعالى.

وهذه أسماء ما هو معروف لدينا من هذا النبع الفياض:

١. تاج التفاسير لكلام الملك الكبير، يقع في جزءين كبيرين.

٢. رحمة الأحد في اقتفاء أثر الرسول الصمد، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فقه العبادات.

٣. الوعظ الثمين في تعمير أعصار رمضان الثلاثين، في الوعظ والتذكير.

٤. الأسرار الربانية في مولد النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، في السيرة والشمائل.

٥. مصباح الأسرار شرح مشكاة الأنوار، للسيد عبد اللَّه الميرغني المحجوب. في السيرة والشمائل.

٦. الرَّاتب المسمَّى تراكم الأنوار لنيل المقصد ورفع الأستار، في الأوراد والأذكار.

٧. فيوض البحور المتلاطمة، شرح راتب تراكم الأنوار.

٨. الخزانة القدسية في الحقائق اللدنية، في علم التصوف.

٩. الفيوضات الإلهية المتضمنة للأسرار الحكمية. في الحكم.

١٠. شرح الفيوضات الإلهية.

١١. فتح الرسول ومفتاح بابه للدخول لمن أراد إليه الوصول. في الصلوات على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١٢. النُّور البرَّاق في مدح الرسول المصداق، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

١٣. مجموع الأوراد الكبير. به أوراد وأحزاب وأذكار ودعوات وغيرها.

١٤. نفثة الحي القيوم البر لمناجاة السحر.

١٥. حبل الوصال بأسماء اللَّه الحسنى، وشرحه بنفسه.

١٦. سر قضاء الحاجات في التوسُّل بأكابر أهل العنايات من ملائكة وأنبياء وصحب وأولياء ذي كرامات.

١٧. التوسُّل بأسماء النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

١٨. الاستغاثة برسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّم.

١٩. المبتهجة في الدعاء.

٢٠. النفحات المدنية في مدح النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

٢١. العجائب والمفرقات، في المدح النبوي أيضًا.

٢٢. شم البردة في تخميس البردة.

٢٣.منظومة الاستغفار في التملق لحضرة العزيز الغفار.

٢٤. قصيدة السر الظاهر في بعض أحوال الأكابر وآداب الطرق الصوفية.

٢٥. رسالة الفتح المبروك في كثير من آداب السلوك.

٢٦. رسالة الهبات المقتبسة لإظهار المسائل الخمسة، والعطايا الدقيقة في الوجوه المحتوية على كثير من أحوال الطريقة.

٢٧. رسالة الزهور الفائقة في حقوق الطريقة الصادقة.

٢٨. رسالة الجواهر المستظهرة من الكنوز العلية في بعض أوصاف الذات الكريمة المحمدية.

٢٩. شرح ألفية ابن مالك، في النحو.

٣٠. الفوائد البهية في حل ألفاظ الآجرومية.

٣١. منح المُغيث المُغني في حلّ البيقُوني، في علم مصطلح الحديث.

٣٢. غنية الصوفية في علم العربية.

٣٣. شرح ألفية السيوطي في علم البيان.

٣٤. منظومة منجية العبيد في علم التوحيد، وهو كتابنا هذا الذي نضعه بين يدي القارئ الكريم.

تصوفه:

عندما أكمل تحصيل علوم الشريعة كما أسلفنا عمد إلى علوم الحقيقة، فأخذ طريقة جده السيد عبد الله الميرغني المحجوب من عمه السيد محمد يس الميرغني، كما أخذ الطريقة النقشبندية، الشاذلية، القادرية، والجنيدية من مشايخ آخرين منهم الشيخ أحمد بناه، والشيخ سعيد العامودي، ومولانا الشيخ أحمد عبدالكريم الهندي، والسيد أحمد عبدالكريم الأزبكي، ثم أخذها مجتمعة من

سيدي أحمد بن إدريس رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ففتح الله عليه وصار إمامًا مستقلاً، وأقام طريقته الختمية من خلاصة هذه الطرق الخمس، ورمز إليها بكلمتي نقش جم: فالنون للنقشبندية، والقاف للقادرية، والشين للشاذلية، والجيم للجنيدية، والميم للميرغنية، وهي طريقة جده العارف بالله السيد عبد الله المحجوب الميرغني بالطائف.

فكان في كل بلد يدخلها أول من يرحب به العلماء والفقهاء، وكانوا هم أول من يأخذ عليه، ثم يأمرون أتباعهم وأهلهم بالأخذ عليه والاقتداء به، وبهذا انتشرت انتشارًا سريعًا في جميع البلاد، ونجدها اليوم في جميع أنحاء العالم أدناه وأقصاه، كما نجد المتمسكين بها ظاهرين على الحق لا يضرهم من خالفهم.

الْإِهْدَاءُ

إلى سيادة مولانا السيد محمد عثمان الميرغني حفظه الله ورعاه، قائد الركب والقائم بالأمر فينا، وإرشاده لنا بأن هذه الطريقه طريقة علميَّة، فكان يقول لي: علِّموا الناس العلم ودلُّوهم عليه. وهو له باع طويل في العلوم والمعارف كيف لا وهو ابن العارف بالله والدال عليه سيادة مولانا السيد علي الميرغني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وطيَّب الله ثراه، ومن المعلوم أن مولانا السيد علي الميرغني خريج الأزهر الشريف وأخذ الشهادة العلمية منه، وأتى إلى السودان من البوابة الشرقية التي خرج بها إلى مصر، وقدومه كان في سنة ١٩٠١م رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، وحفظ مولانا السيد محمد عثمان ابن السيد علي الميرغني، وجزاه الله عن الأمة الإسلامية خير الجزاء، اللَّهم آمين والسلام.

شارح الكتاب: مبارك محمد سعيد عثمان بركات

الخميس ٢٣ صفر ١٤٤٣هـ - ٣٠ سبتمبر ٢٠٢١م

نُبْذَةٌ عَنْ شَارِحِ الْكِتَابِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِهِ الإِعَانَةُ بَدْءًا وَخَتْمًا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، ذَاتًا وَوَصْفًا وَاسْمًا

الاسم: مبارك محمد سعيد عثمان أحمد بركات، وُلِدَ بقرية الحجازية ريفي المتمة، عام ١٣٧٥هجرية، ١٩٥٥ميلادية.

درستُ بمدرسة وادي الشيخ الإبتدائية، ثم انتقل إلى مدينة شندي ١٩٦٨م مع الوالد العزيز والأخوة الكرام، ثم ملاقاة علماء بمسجد شندي الكبير، منهم الشيخ المأمون الحاج جابر، تلميذ الأستاذ محمد البدوي شيخ الإسلام. والجلوس مع تلميذه الشيخ عبد الرحيم إمام مسجد شندي الكبير، والعالم والمدرس به ثم في العام ١٩٦٩م في سوق شندي الكبير بمحل الوالد والأخوان الاجتماع بالشيخ العارف بالله مولانا الشيخ محمد الهادي الشيخ علي الحفيان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وصحبته إلى أن انتقل إلى الرفيق الأعلى في يوم الجمعة ٢٤ صفر ١٤١١هـ الموافق ١٤سبتمبر١٩٩٠م.

وفي عام ١٩٩٢م قابلت مولانا السيد محمد عثمان ببيته بمكة المكرمة مع الوالد والأخ بابكر محمد سعيد، وطلب مني أن اقابله بجدة بداره بالعمائر بحي الكندره، وقابلته ليلاً ودار بيننا حديث طويل، ثم بعد ذلك تخليفه لي وإذنه بتسليك المريدين نيابة عنه، ثم في العام القابل ١٩٩٣م، اجتمعت به أيضًا وأعطى الإذن لأخونا الخليفة بابكر محمد سعيد بتسليك المريدين، وكذلك أذن لي أن أبلغ الأستاذ الشيخ صالح الشيخ محمد الهادي الحفيان بتسليك المريدين أيضًا وعمنا أحمد الحفيان كذلك.

ثم أرشدني ودلني شيخنا الشيخ عبد الرحيم علي جاد الله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى العارف بالله العالم الجليل شيخنا شيخ الإسلام القدوة الدال إلى الله سبحانه

وتعالى ورسوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الشيخ مجذوب مدثر الحجاز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجلست معه قرابة عشرة سنين للقراءة في درس حديث البخاري وكان يكنيني بأبي دبارة. والتحقت بالأخ العالم الشيخ الخليفة عبد الله يوسف عبد الله، وجلست مع شيخنا الأستاذ الشيخ محمد علي الطريفي لختمة الرسالة عصرًا بمسجد البرير بسوق أم درمان، ثم الانتقال معه إلى جامع الخليفة يحيى الكوارتي بحي العرب وقراءة كتاب أقرب المسالك للشيخ أحمد الدردير رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

ثم بعد ما انتدب شيخنا الأستاذ محمد علي الطريفي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إلى المملكة العربية السعودية، وفي العام ١٩٧٧م كان التحقت بجامع أم درمان الكبير والجلوس بحلقة مولانا الشيخ بلة حسن خليفة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وكان في هذه الحلقة من فطاحلة العلماء وطلبة العلم منهم علي سبيل المثال شيخنا الشيخ الفكي ود الحسن، والشيخ عبدالرحيم علي جاد الله، والشيخ محمد أحمد بركات، ومن طلبة العلم المتقدمين الأخ الشيخ دياب أحمد دياب دفع الله، والأخ إسحاق أحمد محمد علي، ومن قبل لقيت الأخ شيخ إسحاق بدرس الشيخ الأستاذ محمد علي الطريفي، وتآخينا من ذلك الوقت إلى وقتنا هذا.

ثم في عام ١٩٨٠م قدم إلينا الأخ الشيخ الخليفة بابكر محمد سعيد بركات وتواصل هذا الدرس إلى أن إفتتحنا مسجد الختمية بأمبدة في ١٤٠٩هـ الموافق ١٩٨٩م .

بقية المشايخ الذين درسنا عليهم: شيخنا الشيخ وراق عبدالرحمن وراق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بمسجد الشيخ الفاتح قريب اللَّه رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ من عام ١٩٧٧م إلى انتقال الدرس إلى مسجد الختمية يوم الأربعاء في ١٩٨٩م وحتَّى ٢٠٠٥م.

ثم الدراسة مع الشيخ آدم عباس في بانت، وشيخنا الشيخ الطاهر محمد سليمان في منتصف السبعينات، وإجازته لنا بالمدينة المنورة على ساكنها أفضل الصلاة والسلام أمام المواجهة الشريفة.

وكذلك الدراسة مع الشيخ محمد الأمين الشنقيطي المقيم بسنار وإجازته لنا، وكان يأتي إلينا في مسجدنا في المناسبات الدينية خاصة المولد النبوي الشريف له الرحمة والرضوان، والشيخ محمد الحبيب الشنقيطي بالقضارف، والشيخ يوسف بابكر جبريل، ولا أنسى دلالة شيخنا الشيخ المكي محمد سقا رَضِي اللَّهُ عَنْهُ بديم ود سقا بالقرب من ديم القراي بشندي، بكثير من الإرشادات الدينية والإفادات العلمية وكذلك شيخنا و-نحن صغار السن -الشيخ محمد سالم ود مدني بقوز العلم الصغير وقد توفي في عام ١٩٦٦م.

وفي حج الفريضة ١٩٧٥م جلسنا مع والد الشيخ محمد علوى المالكي بصحن الكعبة المشرفة، وجلوسي مع بعض المشايخ ولم يكن كثيرًا الشيخ محمد محمد أحمد الشيخ الرحبي، والشيخ يوسف عبد العاطي العسيلاتي، والشيخ عثمان الزبير بالجامع الكبير بأم درمان، وكنت معيد بحلقة الشيخ بلة حسن خليفة في درس السيرة يوم الأحد في عام ١٩٨٠م إلى أن تحولنا لمسجد الختمية في ١٩٨٩م.

ثم بعد أن تحولنا إلى مسجد الختمية بأمبدة في ١٩٨٩م كما ذكرنا آنفًا وإجازة المشايخ كلهم بلا فرز لنا في الدروس، عقدت الحلقة في شهر شوال ١٤٠٩هـ مايو ١٩٨٩م بتدريس كتاب ابن عاشر "المرشد المعين" و"العزية" و"الخريدة" و"الجوهرة" ثم "أقرب المسالك" و"السيرة" للسيد أحمد بن زيني دحلان و"إحياء علوم الدين" الجزء الثالث وهو ربع المهلكات و"حكم ابن عطاء

الله السكندري بشرح ابن عجيبة" و"شرح الأربعين النووية" للجرداني، وخطبتي في صلاة الجمعة منذ افتتاح المسجد إلى الآن.

وبعد وفاة شيخنا الشيخ بلة حسن خليفة ١٩٩٧م أصرَّ عليَّ شيخنا الشيخ الفكي ود الحسن بأن أخلف شيخنا الشيخ بلة بمسجد علي أحمد بأمدرمان، بعد تحوّل الحلقة إليه من جامع أم درمان الكبير لمدة سنة كاملة، ثم بعد ذلك قال شيخنا شيخ الفكي لطلبة شيخ بلة: مبارك ما قصَّر معانا، من يستطيع يذهب معنا إلى مسجد الختمية بأمبدة. وبالفعل أتى معنا غالبية الطلبة وعلي رأسهم شيخنا ود الفكي، ومكث معي عشرة سنين إلى أن توفي في العام ٢٠٠٧م.

والذين تشرفت بجلوسهم معي في الحلقة من المشايخ الوالد الخليفة الحاج محمد سعيد عثمان أحمد بركات رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَأَرْضَاهُ، والشيخ محمد الهادي الشيخ علي الحفيان، والشيخ محمد أحمد بركات، والشيخ عبدالرحيم علي جاد الله.

ونذكر جزء من أماكن التدريس على سبيل المثال: معهد مولانا السيد علي الميرغني ومسجده، ومركز الإمام الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ بالخرطوم، والدورة العلمية بدائرة مولانا السيد علي الميرغني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ببحري، ومسجد شيخنا شيخ الطريفي ببانت، ومعهد الصولتية بصالحة وعلى رأسهم مدير المعهد الدكتور أحمد فقيري.

شارح الكتاب: مبارك محمد سعيد عثمان بركات

الخميس ٢٣ صفر ١٤٤٣هـ - ٣٠ سبتمبر ٢٠٢١م

الْمُقَدِّمَةُ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِهِ الإِعَانَةُ بَدْءًا وَخَتْمًا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، ذَاتًا وَوَصْفًا وَاسْمًا

وبعد: كانت بداية هذا التأليف يوم الجمعة ٢٧ رجب الأصم ١٤٢٠هـ الموافق ٥ نوفمبر ١٩٩٩م، بعد موافقة الوالدة لنا بذلك، ودعوتها لنا بالتوفيق، وذلك بعد انتقال الوالد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، شرعت وأنا الفقير في ضحى الجمعة المذكورة آنفًا، وسميت هذا التأليف بـ "فتح الرشيد في شرح منجية العبيد"، للإمام الهمام صاحب الصولة والإقدام، السيد محمد عثمان الميرغني الختم، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ آمِينَ، وبارك لنا ولإخواننا في الأيام.

مبارك محمد سعيد عثمان بركات

٢٧ رجب ١٤٢٠ هـ – ٥ نوفمبر ١٩٩٩م

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِهِ الإِعَانَةُ بَدْءًا وَخَتْمًا وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، ذَاتًا وَوَصْفًا وَاسْمًا

الحمد لله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد والصلاة والسلام على سيدنا محمدٍ الذي فضله لم يحد ولم يعد وعلى آله وصحبه أهل الفضل والسؤدد.

وبعد: يقول العبد الفقير ذو العجز والتقصير مبارك محمد سعيد عثمان بركات الراجي من ربه الغني القدير الأدب الكثير والعلم الوفير: هذا أدنى ما يقال في شرح "منجية العبيد" وسميته: "فتح الرشيد في شرح منجية العبيد"، طالب من الله شرح الصدر ووضع الوزر وإعطاء ما أريد.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِهِ الإِعَانَةُ بَدْءًا وَخَتْمًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، ذَاتًا وَوَصْفًا وَاسْمًا

مُنْظُومَةُ مُنْجِيَةِ الْعَبِيدِ فِي عِلْمِ التَّوْحِيدِ

يَقُولُ طَالِبُ الرِّضَا مِنَ الغَنِي (مُحَمَّدُ عُثْمَانُ) مَكِيُّ المِيرْغَنِي

بِاسْمِ الإِلَهِ أبْتَدِي عَقِيدَةْ تُنْجِ كُلَّ سَائِلٍ مُفِيدَةْ

سَمَّيْتُهَا (مُنْجِيَةَ العَبِيدِ) مِنْ هَوْلِ يَوْمِ الوَعْدِ وَالوَعِيدِ

فَالحَمْدُ للَّهِ مَدَى الأَزْمَانِ وَالشُّكْرُ للهِ عَلَى الإِحْسَانِ

ثُمَّ صَلَاةُ مَنْ بِهِ الإِعَانَةْ بَدْءاً وَخَتْماً لِنَبِيّ الضَّمَانَةْ

وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلِّم وَبَعْدُ يَا رَاجِي النَّجَاةِ فَاعْلَمِ

بِأَنَّ رَبِّي أَوَّلاً قَدْ أَوْجَبَا عَلَى المُكَلَّفِينَ مِنْهُمْ طَلَبَا

مَعْرِفَةَ الجَائِزِ أَيْ وَالوَاجِبِ وَالمُسْتَحِيلِ فَأَعْرِفِ المَآرِبِ

وَمَعْنَى وَاجِبٍ هُوَ الَّذِي يُرَى لاَ يَنْتَفِي بِالعَقْلِ مِنْ غَيْرِ مِرَا

والمُسْتَحِيلُ فِي العُقُولِ مُنِعَا تَصَوُّرٌ لَهُ فَكُنْ مُتَّبِعَا

وَجَائِزٌ مَا صَحَّ نَفْيُ ثَبَتَا لَهُ فَشُدَّ العَزْمَ وَاخْشَ المَقْتَا

فَوَاجِبٌ أَنْ تَعْتَقِدْ كُلَّ كَمَالٍ لِرَبِّنَا وَذَاكَ فَرْضُ الإِجْمَالِ

ثُمَّ عَلَى التَّفْصِيلِ عِشْرُونَ صِفَةْ نَفْسِيَّةٌ وَهِيَ الوُجُودُ وَاحِدَةْ

وَخَـــمْسَةٌ سَــلْبِيَّةٌ وَهْــيَ القِـدَمْ   كَـذَا البَقَـا مُخَالِـفَاتٌ لِلْعَــدَمْ
قِـــيَامُهُ بِـــالنَّفْسِ وَحْـــدَانِيَّةْ   ضِـــدُّ المَعَـــانِي سَبْـــعَةٌ سَنِـــيَّةْ
فَقُـــــــدْرَةٌ إِرَادَةٌ كَــــــلَامُ   وَالــعِلْمُ وَالحَيَــاةُ يَــا غُــلَامُ
وَبَصَـــرٌ وَالسَّــمْع ثُــمَّ سَــبْعُ   تُـــسَمَّى مَعْـنَـــوِيَّةً تُـنَـــوَّعُ
فَـــقَادِرٌ مُـــرِيدٌ هُـــوَ الحَــيُّ   وَعَـــالِمٌ مُتَـكَـــلِّمٌ عَـــلِيٌّ
وَهُـــوَ السَّــمِيعُ وَالبَصِــيرُ جَـلَّا   عَنْ ضِدِّهَا الجَمِيعِ فَاحْصِ النَّقْلَا
وَقَـــدْ تَعَلَّقَـــتْ إِرَادَةُ الـــوَلِيّ   بِالمُمْـكِنَاتِ مَعْهَا قُـدْرَةُ العَلِـيّ
بِـــكُلِّ مَعْلُومَــــاتِهِ تَعَلَّـــقَا   العِـلْمُ وَالكَـلَامُ فَـاحْفَظْ تَرْقَـى
تَعَـلَّقَ السَّـمْعُ كَـذَاكَ البَصَـــرْ   بِكُـــلِّ مَـــوْجُودَاتِهِ كَـذَا تَـــبَصَّرْ
أَمَّـــا الحَـــيَاةُ لَا تَعَلُّـــقُ لَهَـــا   وَكُلُّ نَقْصٍ انفِ عَنْ رَبِّ النُّـــهَى
وَاخْشَ اعْتِقَـادَ الجَبْـرِ وَالحُلُـولِ   وَالاِتِّـحَـــادِ لَا تَـــكُنْ فُضُـــولِي
وَمَـــنْ حَـكَمْ بِالعِلَّـةِ أَوْ بِـالطَّبْعِ   أَوْ بِالـقُـــوَى لِكُـــفْرِهِ مُسْـــتَدْعِ
لِأَنَّـــهُ يَـمِيـــلُ لِلتَّسَلْسُـــلِ   وَالـدَّوْرِ وَهُـــوَ خَـــاسِرٌ مُزَلْـزَلِ
وَالمُسْتَحِيـــلُ ضِـــدُّ مَـــا تَـــقَدَّمَا   فِي حَـقِّ مَـوْلَانَا اعْتَـــقِدْ وَالْزَمَـا
فَـــعَدَمٌ ثُـــمَّ الحُـدُوثُ وَالـــفَنَاء   مُمَـاثِـلَاتِ الخَـلْـقِ نَـزِّهْ رَبَّنَـا

وَعَـنِ الاِحْتِيَـاجِ وَالتَّعَـدُّدِ اعْلَـمِ وَالعَجْـزِ وَالإِكْرَاهِ وَالجَهْلِ افْهَـمِ
وَالمَـوْتِ ثُـمَّ بَـكَمٍ ثُـمَّ عَمَـى وَصَمَـمٍ ضِـدَّ مَعْـنوِيٍ الْزَمَـا
وَالجَائِزُ المَعْلُومُ فِي حَـقِّ العَظِـيمْ إِسْعَادُ عَـاصِي وَإِشْـقَاء مُسْـتَقِيمْ
وَرُؤْيَـةُ الـمَوْلَى مَنَـامَاً جَائِزَةْ فِي الدُّنْيَا فِي الأُخْرَى عِيَانَاً وَارِدَةْ
وَوَاجِبٌ أَنْ يُعْتَقَدْ فِـي الرُّسُـلِ أَمَـانَةٌ صِـدْقٌ وَتَـبْلِيغٌ جَـلِي
وَيَسْتَحِـيلُ اِعْتِقَـادٌ فِـيهِمِ خِيَـانَةً كَـذِبْ وَكَـتْمُ احْصِيهِمِ
وَجَـائِزٌ فِـي حَـقِّهِمْ كَالأَكْـلِ وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ مَـوْتٍ امْـلِ
وَيَـجِبُ الإِيـمَانُ بِالجِـنَانِ وَالحَـوْضِ وَالحِـسَابِ وَالنِّيرَانِ
كَذَا الثَـوَابُ وَالعِقَـابُ وَالنَّشْـرُ مِيزَانُنَا الصِّـرَاطُ بَـعْد الحَشْـرُ
وَالحُـورُ وَالجِـنُّ كَـذَا الوِلْـدَانُ وَالأَنْبِيَـاء الأَمْـلَاكُ وَالـتِّبْيَانُ
وَالأَوْلِـيَاء وَكُـلُّ مَـا أَوْرَدَهْ نَـبِيُّـنَا مِـنْ حُـكْمِهِ أَوْجَـبَهْ
وَكَلِمَةُ التَّهْلِيـلِ عَمَّـتْ كُـلَّ مَـا ذَكَرْتُـهُ فَـاذْكُرْ لَهَـا لِتَـغْنَمَا
هَـذَا وَلاَزِمْ لِـطَرِيقِ الـقَوْمِ وَحَـصِّلِ التَّـقْوَى وَدَعْ لِلنَّـوْمِ
وَبَـادِرِ التَّوْبَـةَ كُـنْ شَـكَّـارا لِـنِعَمٍ وَلِلبَـلاء صَـبَّـارَا
وَكُـلُّ أَمْـرٍ فِـي الـوَرَى تَـرَاهُ بِـقَدَرِ اللَّهِ مَـعْ قَـضَـاهُ

وَحَـافِظِ الصَّـلَاةَ فِـي الأَوْقَـاتِ ... وَاكْثِـرِ الـذِكْرَ فِـي الحَــضَرَاتِ

وَلَازِمَـنْ عَــلَى النَّبِـيّ الصَّـلَاةْ ... وَحُبَّـــهُ وَآلَـــهُ الثِّقَـــاةْ

وَحَقِّـقِ الرَّجَـاءَ وَالخَـوْفَ مَعَـا ... وَاكْــثِرِ اسْتِغْــفَارَ حَـقٍّ وَالـدُّعَا

وَاتْـــرُكِ الغِـــيبَةَ وَالنَّمِيمَــــةْ ... وَالكِبْرَ وَالعُـجْبَ وَكُـلَّ ذَمِيمَـةْ

كَحَـــسَدٍ كَــذِبٍ مَـعَ الرِّيَـاءِ ... وَكُــلَّ مَـا يُــبْعِدْ عَـنِ الــعُلَاءِ

وَحَــضِّرِ الفُـؤَادَ فِـي الأَعْمَـالِ ... لِتَـرْتَــقِي مَـرَاتِــبَ الرِّجَـــالِ

وَتَــحْظَ بِالفَتْــحِ مِـنَ الـرَّحْمَنِ ... وَتَهْــنَى بِالأَمْــنِ مِــنَ الـدَّيَّانِ

خَيْـرُ المَنَـاهِجِ إِتِّبَـاعُ المُصْـطَفَى ... لَازِمْ عَـلَيْهِ صَلَّى مُعْطِي الــوَفَا

عَلَــى الـــنَّبِيّ وَآلِــهِ وَالصَّــحْبِ ... مَا انْهَلَّ غَيْثٌ أَوْ جَرَى فِي السُّحْبِ

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بدأ المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كتابه بالبسملة إقتداءً بكتاب اللَّه، الذي أنزله على خير من أرسله، بل اقتداءً بجميع كتب اللَّه العظام المنزلة على رسله الكرام، وكذلك امتثالًا لما روى عن النبي الأكرم: «كُلُّ أَمْرٍ ذِي بَالٍ» أي صاحب حال يهتم به شرعًا، «لَا يُبْدَأُ فِيهِ بِبِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ فَهُوَ أَقْطَعُ». وفي روايةٍ: «أَجْزَمُ»، وفي روايةٍ: «أَبْتَرُ» فهو ناقص وقليل البركة، إن تمَّ حسًّا لا يتم معنىً، وفي روايةٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ» وفي أخرى: «ذِكْرُ اللَّهِ».

قَالَ السَّيِّدُ مُحَمَّد سَرّ الْخَتْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "شرحه على النُّور البرَّاق": وبسم اللَّه الرحمن الرحيم من العارف بمنزلة كن من اللَّه جلَّ وعلا، كما أفاده الناظم في شرحه على "الحكم" له. وذكر العارف باللَّه سيدي ابن عطاء اللَّه في كتابه المسمى بـ"المصباح الداعي إلى الفلاح": يروى أن اللَّه تعالى أوحى إلى نبي من الأنبياء: من أتاني وفي صحيفته أربعة آلاف مرة بسم اللَّه الرحمن الرحيم، ركزت لواءه إلى قائمة من قوائم العرش، وشفعته في اثنتي عشر ألف عتيق قد استوجبوا النار، ولولا أني قضيت على كل نفس بالموت ما قبضت روحه، ولا يمنعه أن يدخل الجنة إلا أن ينزل به الموت.

ففضائل البسملة أشهر من أن تذكر وأكثر من أن تحصر، وقد اعتنى العلماء بشأنها فألف مبسوط ومختصر ما دخلت في حد الكثرة، واشتهر كثير منها غاية الشهرة. اهـ.

البسملة لها خمس جُمل:

الجملة الأولى الباء: وهي حرف جر، وحرف الجر إما أن يكون حقيقيًا أو زائدًا. والزائد الذي لا يجر ما بعده ولا يحتاج لمتعلق، وأما الحقيقي فهو الذي يحتاج لمتعلق، وفي البسملة حرف الجر حقيقي، ومتعلقه محذوف مقدر والتقدير: بسم اللَّه أكتب. وقد اختلف في المتعلق المحذوف هل هو فعل أو هو اسم، وهل هو خاص أم عام، هذه أربع صور، وفي كل إما أن يكون متقدمًا أو متأخرًا، والذي اختاره العلماء أن هذا المتعلق فعل خاص ومتأخر، وقولهم فعل لأن الأصل في الأعمال الأفعال، وقولهم خاص لأن كل شارع في شيء يضمر في قلبه ما كانت البسملة بداية له، وقولهم متأخر لكي تعم البركة العمل من أوله إلى آخره. وهذا التقدير إذا صدرت البسملة من الحادث لأنها طلب العون بمسمى هذا الاسم العظيم، وأما إذا صدرت من اللَّه عَزَّ وَجَلَّ ليس التقدير هكذا، بل بسم اللَّه كان كل شيء وبه تكون الأشياء، والذي كذلك لا بد أن يكون منزه عن النقائص، ومتصف بجميع الكمالات.

الجمله الثانية الاسم: المراد بالاسم السين والميم، وفي اللغة هو ما دل على مُسمَّى وهو مشتق من السمو، وهو العلو لأنه يعلو به مسماه أي يظهره من الخفاء.

الجملة الثالثة لفظ الجلالة: وهو الاسم المفرد، وتعريفه عند الفقهاء: علمٌ دالٌّ على الذات الواجبة الوجود المستحقة لجميع المحامد، وعند المتكلمين من تقدَّم وجوده وعظمت ذاته وصفاته ودام امتنانه.

الجملة الرابعة والخامسة: الرحمن الرحيم: وهما صفتان مشتقتان من الرحمة، والرحمة رقة في القلب، وانعطاف تقضي التفضل والإحسان، وهذا في حق الحادث، وأما في حق الباري جَلَّ وعلا المراد به الغاية وهو التفضل والإحسان. والرحمن من عمَّ بنعمتي ايجاده وإمداده جميع خلقه هذا عند الفقهاء، وأما عند المتكلمين: من عظم إحسانه ودام امتنانه، وأما الرحيم عند الفقهاء: من خصّ من بينهم أهل وده برضاه، وعند المتكلمين: من سدَّ كل فاقة ولا يحمِّل دون طاقة.

يَقُولُ طَالِبُ الرِّضَا مِنَ الغَنِي (مُحَمَّدٌ عُثْمَانُ) مَكِيُّ المِيرْغَنِي

قَالَ السَّيِّدُ مُحَمَّد سِرّ الْخَتْم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في "شرحه على النُّور البرَّاق" يقول: المبني للمجهول يأتي لثلاثة معاني، جمعها القائل في قوله:

أَقُولُ لِظَبْيٍ مَرَّ بِي وَهْو رَاتِعٌ أَأَنْتَ أَخُو لَيْلَى؟ فَقَالَ: يُقَالُ
فَقُلْتُ أَفِي ظِلِّ الْأَرَاكَةِ وَالنَّقَا يُقَالُ وَيُسْتَظَلُّ فَقَالَ يُقَالُ
فَقُلْتُ يُقَالُ الْمُسْتَجِيرُ بِأَرْضِكُمْ إِذَا مَا جَنَى ذَنْبًا فَقَالَ يُقَالُ

الأول من القول، والثاني من القيلولة، والثالث من الإقالة.

ويقول: فعل مضارع يصلح للحال والاستقبال معًا، ولا يتمحض لأحدهما إلا بقرينة نحو يقول الآن أو غدًا، ولا بد له من فاعل وفاعله (طَالِبُ) أي القاصد.

(الرِّضَا) ضد السخط وهو أي الرضا: قبول العمل مع الإثابة عليه. (الغَنِي) متعلق بطالب، (مُحَمَّد عُثْمَان) هذا هو اسم المُؤلِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، ولكن لا أدري من أين أبتدي إن سألت عن نسبه وحسبه، فهو الشريف الحسني الحسيني المحمدي، وإن سألت عن علمه فهو العالم الإمام المحقق القدوة المفسر المحدث الفقيه اللغوي النحوي صاحب السِّيَر والشمائل والفضائل والنظم والنثر، بل هو في كل فن إمام بشهادة العقل والنقل. وأما كراماته كالشمس

في رابعة النهار لا بمجرد الدعوى، يحكم بذلك كل من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد، بل مناقبه أُفردت بالتّأليف من ابنه السيد جعفر رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ.

(مَكِيُّ) أي ينسب إلى مكة أم القرى أي بلده، كما قال ابن ابنه السَّيِّد مُحَمَّد عَثْمَان تَاج السِّرِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

مِيرْغَنِيُّ الأَصْلِ مَكِّيُّ الوَطَنْ   هَاشِمِيٌّ حَلَّ فِي وَادِي طُوَيْ

(الْمِيرْغَنِيّ) يعني الشريف الغني، فهو مركب من كلمتين أمير وغني، وهذا الاسم اشتهر به أحد أجداد المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بل صار اسمًا لكل العائلة، أما المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ اشتهر برمز آخر وهو الختم.

بِاسْــمِ الإِلَــهِ أبْتَــدِي عَقِيــدَه تُــنْجِ كُــلَّ سَــائِلٍ مُـفِيــدَه
سَــمَّيْتُهَا {مُنْجِيَــةَ العَــبِيدِ} مِنْ هَــوْلِ يَـوْمِ الوَعْـدِ وَالوَعِـيدِ
فَالحَمْــدُ للَّهِ مَــدَى الأَزْمَــانِ وَالشُّــكْرُ للَّهِ عَلَــى الْإِحْسَــانِ

(بِاسْمِ الإِلَهِ) لا باسم غيره، والمعنى استعين بمسمى هذا الاسم العظيم. (أبْتَدِي) أي أشرع في (عَقِيدَه تُنْجِ كُلَّ سَائِلٍ) بمعنى معتقده اعتقادًا جازمًا مقارنًا لدليل ولو إجمالي، وبهذا السبب تحصل النجاة.

(سَـمَّيْتُهَا) أي العقيدة، (مُنْجِيَـةَ العَبِيـدِ) وهذا شرف عظيم بأن جعلهم عبيد لله أحرارًا عن غيره، وتحصل النجاة لكل من فهمها وأعتقد ما فيها اعتقادًا جازمًا كما أسلفنا. (مِنْ هَـوْلِ) أي فزع، (يَـوْمِ الوَعْدِ) هو يوم القيامة بالخير للمؤمنين، (وَالوَعِيدِ) عطفًا مغايرًا على الوعد وهو بالشر للكفار.

(فَالحَمْــدُ) ثابت، (للَّهِ) تعالى بجميع أنواعه. الحمد لغة: هو الوصف بالجميل على الجميل الاختياري على جهة التعظيم. وأما الحمد اصطلاحًا: هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه منعمًا على الحامد أو غيره. (مَــدَى الأَزْمَـانِ)، والمراد تأبيد الحمد على الدوام. (وَالشُّـكْرُ) لغة: هو فعل ينبئ عن تعظيم المنعم بسبب كونه

منعمًا على الشَّاكر أو غيره، سوى كان ذلك قولاً باللسان أو اعتقادًا بالجنان أو عملاً بالأركان.

كما قال الشاعر الذي أتى لِسَيِّدِنَا عَلِيّ كرَّم اللَّهُ وَجْهَهُ لما سأله حاجة فأعطاه شيئًا من التمر، فلم يتقبل الأعرابي فأعطاه الدرع الذي كان عليه، فقال الأعرابي:

مَا كَانَ شُكْرِي وَافِيًا لِجَمَالِكُمْ   وَلَكِنَّنِي حَاوَلْتُ بِالشُّكْرِ مَذْهَبَا

أَفَادَتْكُمُ النَّعْمَاءُ مِنّى ثلاثةً   يَدِي ولِسَانِي وَالضَّمِيرَ الْمُحَجَّبَا

وأما الشُّكر اصطلاحًا: هو صرف العبد جميع ما أنعم اللَّه به عليه في ما خلق لأجله. (عَلَى الْإِحْسَانِ) أي لأجل إحسانه.

ثُـمَّ صَـلَاةُ مَـنْ بِـهِ الإِعَانَـةْ   بَــدْءًا وَخَتْمًـا لِنَبِـيِّ الضَّـمَانَةْ

(ثُـمَّ) للترتيب، (صَلَاةُ) أي الرحمة المقرونة بالتعظيم، (مَـنْ بِـهِ الإِعَانَـــةْ) أي الله سبحانه وتعالى كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ وَمَلَائِكَتَهُ يُصَلُّونَ عَلَى النَّبِيِّ يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٥٦]. (بَـدْءًا) أي في حالة الابتداء، (وَخَتْمًـا) أي في حالة الانتهاء، (لِنَبِيِّ الضَّـمَانَةْ) أي الضامن لنا الشفاعة لقوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «شَفَاعَتِي لِأَهْلِ الْكَبَائِرِ مِنْ أُمَّتِي». والصحيح أنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ينتفع بصلاتنا عليه كباقي الأنبياء، لكن لا ينبغي التصريح بذلك إلا في مقام التعليم، كما أشار إلى ذلك بعضهم بقوله:

وصــححوا بأنــه ينتفــع   بـذي الصَّـلاة شـأنه مرتفـع
لكنـه لا ينبغـي التصـريح   لنـا بـذا القـول وذا صـحيح

وقيل المنفعة عائدة على المصلي ليس إلّا، لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قد أُفرغت عليه الكمالات. وَرَدَ بأنه ما من كامل إلا وعند الله أكمل منه، والكامل يقبل الكمال، لكن لاينبغي للمصلي أن يلاحظ ذلك بل يلاحظ أنه يتوسل به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عند ربه في نيل مقصوده. اهـ "الباجوري على الجوهرة".

ذكر الشيخ محمد مَيَّارَة في "شرحه على ابن عاشر" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ، قال: ﴿فَائِدَةٌ﴾: قال الرَّصاع ناقلاً عن الشيخ أبي محمد عبد العزيز بن عبد السلام: لا يتوهم المصلي على النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وآله وصحبه، أن صلاتنا شفاعة منا له عند الله تعالى في زيادة رفعته وبلوغ أمنيته، فإن مثلنا لا يشفع لعظيم القدر عند ربه، ولكن الله سبحانه أمرنا بمكافأة من أحسن إلينا وأنعم علينا، ولما أحسن إلينا رسول الله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، إحسانًا لم يحسن إلينا أحد كإحسانه، ولا أكرمنا مخلوق مثل إكرامه، وكنا عاجزين عن مكافأة سيد المرسلين وحبيب رب العالمين، أمرنا ربنا سبحانه أن نرغب إليه بأن يصلي هو عليه لتكون صلاة مولانا عليه مكافأة له منه سبحانه، لإحسانه إلينا وأفضاله علينا، إذ لا إحسان أفضل من إحسانه إلا إحسان خالقه المنعم بِبَعَثِه رحمةً إلى خلقه، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

وَآلِــــهِ وَصَـــــحْبِهِ وَسَـــــلِّمِ   وَبَعْدُ يَا رَاجِي النَّجَاةِ فَاعْلَمِ

(وَآلِهِ) الضمير لِلنَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أي الصلاة على آله وهم في مقام الزكاة عندنا أي المالكية، والإمام أحمد: بني هاشم، وفي مقام المدح: كل تقي، وفي مقام الدعاء: كل مؤمن ولو عاصيًا.

وَأَخْرَجَ الْإِمَامُ مُسْلِمٌ فِي "صَحِيحِهِ": عَنْ يَزِيدَ بْنِ حَيَّانَ، قَالَ: «انْطَلَقْتُ أَنَا وَحُصَيْنُ بْنُ سَبْرَةَ وَعُمَرُ بْنُ مُسْلِمٍ إِلَى زَيْدِ بْنِ أَرْقَمَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، فَلَمَّا جَلَسْنَا إِلَيْهِ قَالَ لَهُ حُصَيْنٌ: لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، رَأَيْتَ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَسَمِعْتَ حَدِيثَهُ وَغَزَوْتَ مَعَهُ وَصَلَّيْتَ خَلْفَهُ، لَقَدْ لَقِيتَ يَا زَيْدُ خَيْرًا كَثِيرًا، حَدِّثْنَا يَا زَيْدُ مَا سَمِعْتَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَقَالَ زَيْدٌ: قَامَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِينَا خَطِيبًا، فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَى عَلَيْهِ وَوَعَظَ وَذَكَّرَ، ثُمَّ قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، أَلَا أَيُّهَا النَّاسُ فَإِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ يُوشِكُ أَنْ يَأْتِيَ رَسُولُ رَبِّي فَأُجِيبَهُ، وَأَنَا تَارِكٌ فِيكُمْ ثَقَلَيْنِ: أَوَّلُهُمَا كِتَابُ اللَّهِ فِيهِ الْهُدَى وَالنُّورُ، فَخُذُوا بِكِتَابِ اللَّهِ وَاسْتَمْسِكُوا بِهِ، وَأَهْلُ بَيْتِي أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي، أُذَكِّرُكُمُ اللَّهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي».

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَرَادَ التَّوَسُّلَ إِلَيّ وَأَنْ يَكُونَ لَهُ عِنْدِي يَدٌ أَشفع لَهُ بهَا يَوْم الْقِيَامَة فَلْيَصِل أَهْل بَيْتِي وَيُدْخِل السُّرُور عَلَيْهِمْ». وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَحَبَّ أَنْ يُنْسَأَ، -أَيْ يُوخَّرَ-

أَجَلُهُ، وَأَنْ يُمَتَّعَ بِمَا خَوَّلَهُ، فَلْيَخْلُفْنِي فِي أَهْلِي خِلَافَةً حَسَنَةً، وَمَنْ لَمْ يَخْلُفْنِي فِيهِمْ بُتِرَ عُمْرُهُ، وَوَرَدَ عَلَيَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مُسْوَدًّا وَجْهُهُ».

قال العلماء رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: معنى «أُذَكِّرُكُمُ اللهَ فِي أَهْلِ بَيْتِي»: أحذركم الله في شأن أهل بيتي.

وَرِوَايَةُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ: «إِنِّي أُوشِكُ أَنْ أُدْعَى فَأُجِيبَ، وَإِنِّي تَارِكٌ فِيكُمُ الثَّقَلَيْنِ: كِتَابَ اللَّهِ حَبْلٌ مَمْدُودٌ مِنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ، وَعِتْرَتِي أَهْلُ بَيْتِي، وَإِنَّ اللَّطِيفَ الْخَبِيرَ أَخْبَرَنِي أَنَّهُمَا لَنْ يَفْتَرِقَا حَتَّى يَرِدَا عَلَيَّ الْحَوْضَ، فَانْظُرُوا بِمَ تَخْلُفُونِي فِيهِمَا».

وَأَخْرَجَ الطَّبَرَانِيُّ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَزُولُ قَدَمَا عَبْدٍ حَتَّى يُسْأَلَ عَنْ أَرْبَعٍ: عَنْ عُمْرِهِ فِيمَ أَفْنَاهُ، وَعَنْ جَسَدِهِ فِيمَ أَبْلَاهُ، وَعَنْ مَالِهِ فِيمَ أَنْفَقَهُ وَمِنْ أَيْنَ اكْتَسَبَهُ، وَعَنْ حُبِّ أَهْلِ الْبَيْتِ».

وَأَخْرَجَ الدَّيْلَمِيُّ، عَنْ سَيِّدِنَا عَلِيٍّ كَرَّمَ اللهُ وَجْهَهُ: «أَثْبَتُكُمْ عَلَى الصِّرَاطِ أَشَدُّكُمْ حُبًّا لِأَهْلِ بَيْتِي وَأَصْحَابِي». وَرِوَايَةُ جَابِرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «أَيُّهَا النَّاسُ، قَدْ تَرَكْتُ فِيكُمْ مَا إِنْ أَخَذْتُمْ بِهِ لَنْ تَضِلُّوا: كِتَابَ اللَّهِ وَعِتْرَتِي أَهْلَ بَيْتِي). اهـ النَّبْهَانِيّ.

(وَصَحْبِهِ) اسم جمع لصاحب، بمعنى صحابي: وهو من اجتمع به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مؤمنًا ومات على ذلك.

وَأَخْرَجَ ابْنُ النَّجَّارِ فِي "تَارِيخِهِ": عِنْ سَيِّدِنَا الْحَسَنِ بْنِ عَلِيّ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، قَالَ رَسُول اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِكُلِّ شَيْءٍ أَسَاسٌ وَأَسَاسُ الإِسْلَامِ: حُبُّ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَحُبُّ أَهْلِ بَيْتِهِ».

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اللَّهَ اللَّهَ فِي أَصْحَابِي، لَا تَتَّخِذُوهُمْ غَرَضًا بَعْدِي، فَمَنْ أَحَبَّهُمْ فَبِحُبِّي أَحَبَّهُمْ، وَمَنْ أَبْغَضَهُمْ فَبِبُغْضِي أَبْغَضَهُمْ، وَمَنْ آذَاهُمْ فَقَدْ آذَانِي، وَمَنْ آذَانِي فَقَدْ آذَى اللَّهَ وَمَنْ آذَى اللَّهَ يُوشِكُ أَنْ يَأْخُذَهُ».

وَعَنْ جَابِرٍ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ النَّاسَ يَكْثُرُونَ وَأَصْحَابِي يَقِلُّونَ، فَلَا تَسُبُّوهُمْ، لَعَنَ اللَّهُ مَنْ سَبَّهُمْ». وَعَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَنْ شَتَمَ الْأَنْبِيَاءَ، ثُمَّ أَصْحَابِي، ثُمَّ الْمُسْلِمِينَ».

(وَسَلَّمَ) فالمعنى سلام اللَّه: أي تحيته اللائقة به صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بحسب ما عنده تعالى، فالمطلوب تحية عظمى بلغت الدرجة القصوى، فتكون أعظم التحيات لأنه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أعظم المخلوقات.

والمراد بالتحية في حَقِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كما أفاده السَّنوسي: أن يسمعه كلامه القديم الدال على رفعة مقامه العظيم. ولم يرتضِ بعضهم تفسير السَّلام بالأمان وإن ذكره السنوسي وغيره، لأنه ربما أشعر بمظنة الخوف مع أن النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بل وأتباعه لا خوف عليهم، نعم يخاف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خوف مهابة وإجلال، وَبِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَأَخْوَفُكُمْ مِنَ اللَّهِ» اهـ الباجوري علي الجوهرة.

(وَبَعْدُ) أي بعد هذه المقدمة، وهي مقدمة كتاب وهي ألفاظ تقدَّمت أمام المقصود، لارتباط لها به وانتفاع بها فيه. ادعو (رَاجِي النَّجَاةِ) أي الفوز من هول يوم القهر. اهـ الشيخ أحمد صالح شارح هذه العقيدة.

(فَاعْلَمِ) فأتى المُصنِّف بهذه الجملة لأنها مقدمة علم وهي جملة معانٍ يتوقف عليها الشروع في المقصود كالحد والثمرة إلى آخر المبادئ العشرة المنظومة في قول بعضهم:

إِنَّ مَبَادِي كُلِّ فَنٍّ عَشَرَهْ   الْحَدُّ وَالْمَوْضُوعُ ثُمَّ الثَّمَرَهْ
وَفَضْلُهُ وَنِسْبَةٌ وَالْوَاضِعْ   وِالاِسْمُ الاِسْتِمْدَادُ حُكْمُ الشَّارِعْ
مَسَائِلٌ وَالْبَعْضُ بِالْبَعْضِ اكْتَفَى   وَمَنْ دَرَى الْجَمِيعَ حَازَ الشَّرَفَا

فحده لغة: العلم بأن الشيء واحد. وشرعًا: بمعنى الفن المُدوَّن علم يبحث فيه عن إثبات العقائد الدينية المكتسب من أدلتها اليقينية، وبغير معنى الفن المُدوَّن إفراد المعبود بالعبادة، مع اعتقاد وحدته ذاتًا وصفاتًا وأفعالاً. وقيل: إثبات ذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصفات.

وموضوعه: ذات الله وذات رسله، ومن حيث ما يجب وما يستحيل وما يجوز، والممكن من حيث إنه يستدل به على وجود صانعه والسمعيات من حيث اعتقادها.

وثمرته: معرفة صفات الله ورسله بالبراهين القطعية والفوز بالسعادة الأبدية.

وفضله: أنه أشرف العلوم لكونه متعلقًا بذات الله تعالى وذات رسله، وما يتبع ذلك والمتعلِق بكسر اللام يشرف بشرف المتعلَّق بفتحها.

ونسبته: أنه أصل العلوم وسواه فرع عنه.

وواضعه: أبو الحسن الأشعري ومتابعوه، وأبو منصور الماتريدي ومتابعوه رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا وعنَّا بِهِمَا.

واسمه: علم التوحيد وعلم الكلام، وذكر بعضهم أن له ثمانية أسماء.

واستمداده: من الأدلة العقلية والنقلية.

وحكم الشارع: الوجوب العيني على كل مكلف من ذكر أو أنثى.

ومسائله: قضاياه الباحثة عن الواجبات والجائزات والمستحيلات.

وهل العلم والمعرفة مترادفات أو متغايرات والحق الترادف، فيكون كل من العلم والمعرفة: هو الإدراك الجازم المطابق للواقع المقارن لدليل

ولو إجمالي، والإدراك هو وصول النفس للمعنى، وهي أي الإدراكات أربعة: اليقين والظن والشك والوهم.

وقوله: (الجازم) يخرج الإدراكات الثلاثة، ويبقى إدراك اليقين وهو العلم بحقيقة الشيء، والوصول إلى تمام معناه. وقوله (المطابق) للواقع: والواقع: هو ما في نفس الأمر أو ما في علم الله أو ما في اللوح المحفوظ. قوله (المقارن لدليل ولو إجمالي): والمراد تصويره لا تعبيره.

وعليه الحاكم بشيءٍ على شيء لا يخلو إما أن يكون جازمًا بحكمه أم لا، وإذا كان جازمًا به، إما أن يكون جزمه مطابقًا للواقع أم لا، وإذا كان جزمه مطابقًا للواقع، إما أن يكون مقارنًا لدليل أم لا، وإذا كان جزمه مطابقًا للواقع ومقارنًا لدليل يسمى تقليدًا، ويسمى اعتقادًا صحيحًا، وأما الجزم غير المطابق للواقع مع الظن والشك والوهم فهذه صاحبها هالك جزمًا.

بِـأَنَّ رَبِّـي أَوَّلاً قَـدْ أَوْجَبَـا   عَلَـى المُكَلَّفِـينَ مِـنْـهُمْ طَلَبَـا

(بِـأَنَّ رَبِّي) أي سيدي ومعبودي (أَوَّلاً قَـدْ أَوْجَـبَا عَلَى المُكَلَّفِينَ) قبل كل واجب. وأول واجب شرعًا على المكلف، والمراد بالشرع إرسال الرسل للإنس والجن، وبمجرد وصول الخبر أي خبر الرسالة للمكلف يجب عليه أن يسعى جادًا لأخذ علم الأصول والفروع، ويجتهد ليتحصل على المعرفة ليخرج بها من ربقة التقليد، إذ إيمان المُقلِّد فيه خلاف. والمُقلِّد بكسر اللام: هو الذي روى العقائد وجزم بها جزمًا لا يقبل النقيض بحال، ولكن لم يقم عليها الدليل.

من هو المكلَّف؟، المكلَّف من حيث هو الشخص سواء كان من الإنس أو من الجن أو من الملائكة على القول بذلك. والتكليف: هو إلزام ما فيه كلفة. وقيل: طلب ما فيه كلفة، فلا تكليف بالمندوب والمكروه على الأول، وهو الصحيح بخلاف الثاني، ولا تكليف بالمباح اتفاقًا.

ونذكر حكم أنواع المكلفين الثلاثة:

القسم الأول: الملائكة: وهم أجسامٌ نورانيَّةٌ، وسيأتي تعريفهم في السمعيات إن شاء الله. قيل مكلفون بإسماع الكلام القديم. وقيل: بإرسال بعضهم البعض، والأظهر والتحقيق بأن المعرفة فيهم جِبِلية بدليل الآية: ﴿شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ إلخ [آل عمران: ١٨].

الثاني: الجن: وهو حيوانٌ هوائي ناطق، من شأنه التشكل بالأشكال المختلفة. وتعريف آخر: جسمٌ ناري لطيف سريع الإطِّراب. وهل هم مكلَّفون بإسماع الكلام القديم أو بخلق علم ضروري فيهم أو بإرسال رسول الإنس إليهم، وهو التحقيق وهم مكلفون من الخلقة، وأول من كُلّف منهم إبليس لعنه اللَّه، وهو مكلّف بإسماع الكلام القديم.

الثالث: الإنس وهما أبينا آدم وأمنا حواء عَلَيْهِمَا السَّلَامُ، مكلَّفان بإسماع الكلام القديم وبقية الأنبياء عَلَيْهِمْ السَّلَامُ المعرفة فيهم جِبلِيَّة.

وما عداهم مكلَّفون بشروط، وهم كبقية الإنس. وهي: العقل، بلوغ الدعوة، البلوغ، سليم إحدى الحاستين، ممهل بعد البلوغ.

أما العقل: هو سر إلهي أودعه اللَّه القلب، وله شعاع متصل بالدماغ، تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية. وقال القطب الدَّرْدِيرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: العقل سِرٌّ روحاني تدرك به النفس العلوم الضرورية والنظرية، محله القلب ونوره بالدماغ، ابتداءه عند نفخ الروح في الجنين، وأول كماله عند البلوغ.

قَالَ الْصَّاوِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: وأما الصبي فليس مكلّفًا، إن قلت إن ردة الصبي وإسلامه معتبران عند المالكية، فما معنى اشتراط

البلوغ. أُجيبُ: بأن اعتبار ردته وإسلامه بالنظر لإجراء الأحكام الدنيوية عليه، لتغسيله وتكفينه والصلاة عليه وإرثه ونحو ذلك. أما البلوغ هو قوة تحدث للصبي، تنقله من حالة الطفولة إلى حالة الرجولة، وله خمس علامات هي: خروج المني، إنبات الشعر، إكمال ثمانية عشر حوْلاً، والحيض، والنفاس.

أما بلوغ الدعوة: أي دعوة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أما بقية الأمم فدعوة الذي أرسل إليهم لقوله تعالى: ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا﴾ [الإسراء: ١٥]. وعليه أهل الفترة ناجون وإن غيَّروا وبدَّلوا وعبدوا الأوثان.

الشرط الرابع: سليم إحدى الحاستين: وهما السمع والبصر، أما من خُلِق وهو فاقد السمع والبصر ليس بمكلف، وإذا وجدت واحدة فهو مكلف.

الخامس: الإمهال بعد البلوغ: احترازًا من الذي وافته المنية بعد البلوغ مباشرة، والمراد بالمهلة: المهلة الشرعية التي يستطيع المكلف من خلالها أن يتدبر أموره، وهي ليست مقيدة بزمن بل بحسب فهم الشخص.

ولما كانت معرفة الله تعالى عبارة عن معرفة ما يجب وما يستحيل وما يجوز، لا معرفة حقيقة الذات العليَّة، لعدم إمكان ذلك

ولعدم تكليفنا بذلك، لأنها ليست من الواجبات فضلاً عن كونها من أولها، بل لا تعرف لأحد ولو ارتفعت درجته، وإن أمكنت معرفتها عقلاً، كذا قيل والأصح أنها لا تجوز عقلاً، كما لا تجوز شرعًا، كما في شرح الكُبرى عن الإمام الْغَزَالِيِّ فإن الحادث يقصر بالطبع عن عظيم هذا المقام. قال الشريف المقدسي في "مفاتيح الكنوز":

ظَنَنْتُ جَهْلاً بِأَنَّ اللَّهَ تُدْرِكُهُ ... ثَوَاقِب الْفِكْرِ أَوْ تَدْرِيهِ إِيقَانَا
أَوْ الْعُقُول أَحَاطَتْهُ بِدَيهتهَا ... أَوْ هَلْ أَقَامَتْ بِهِ لَوْلَاهُ بُرْهَانَا
اللَّهُ أَعْظَمُ قَدْرًا أَنْ يُحِيطَ بِهِ ... عِلْمٌ وَعَقْلٌ وَرَأْيٌ جَلَّ سُلْطَانَا
هَذا اعْتِقَادِي فَإِنْ قَصَّرْتَ فِي عَمَلِي ... فَأَسْأَلَ اللَّهَ تَوْفِيقًا وَغُفْرَانَا

وَفِي الْحَدِيثِ: «إِنَّ اللَّهَ احْتَجَبَ عَنِ الْبَصائِرِ كَمَا اِحْتَجَبَ عَنِ الْأَبْصارِ، وَأَنَّ الْمَلَأَ الْأَعْلَى يَطْلُبُونَهُ كَمَا تَطْلبُونَهُ». وَعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، عَنِ النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «تَفَكَّرُوا فِي الْخَلْقِ وَلَا تَفَكَّرُوا فِي الْخَالِقِ، فَإِنَّهُ لَا تُحِيطُ بِهِ الْفِكْرَةُ».

وَسُئِلَ سَيِّدُنَا أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: بِمَ عَرِفْتَ رَبَّكَ؟، قَالَ: «عَرَفْتُ رَبّي بِرَبّي، وَلَوْلَا رَبّي مَا عَرَفْتُ رَبّي. فَقِيلَ لَهُ: هَلْ يَتَأَتَّى لِبَشَرٍ أَنْ يُدْرِكَهُ؟، فَقَالَ: الْعَجْزُ عَنِ الإِدْرَاكِ إِدْرَاك».

وَسُئِلَ سَيِّدُنَا عَلِيّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَكَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ: بِمَ عَرِفْتَ رَبَّكَ؟، قَالَ: «عَرَفْتُهُ بِمَا عَرَّفْنَا بِهِ نَفْسَهُ، لَا يُدْرَكُ بِالْحَوَاسّ

وَلَا يُقَاسُ بِالْقِيَاسِ، وَلَا يُشَبَّهُ بِالنَّاسِ، قَرِيبٌ فِي بُعْدِهِ بَعِيدٌ فِي قُرْبِهِ، فَوْقَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُقَالُ تَحْتَهُ شَيْءٌ، وَأَمَامَ كُلِّ شَيْءٍ، وَلَا يُقَالُ أَمَامَهُ شَيْءٌ، وَهُوَ فِي كُلِّ شَيْءٍ، لَا كَشَيْءٍ فِي شَيْءٍ، فَسُبْحَانَ مَنْ هُوَ هَكَذَا وَلَا هَكَذَا أَحَدٌ سِوَاهُ».

وَقَالَ السَّيِّدُ عَبْد اللهِ الْمِيرْغَنِيّ الْمَحْجُوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ:

هُوَ الْمُحِيطُ فَمَنْ يَحْتَاطُ حَوْطَتَهُ إِنَّ الإِحَاطَةَ فِي ذَا الشَّأْنِ تَضْلِيلُ

وَالْحَدِيث: «إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ خَلْقَهُ فِي ظُلْمَةٍ، ثُمَّ رَشَّ عَلَيْهِمْ مِنْ نُورِهِ فَمَنْ أَصَابَهُ ذَلِكَ النُّورُ اهْتَدَى، وَمَنْ أَخْطَأَهُ ذَلِكَ النُّورُ ضَلَّ» أي معرفة العبد ربه نورٌ من اللَّه يقذفه في قلبه، فيدرك بذلك أسرار ملكه، ويشاهد غيب ملكوته ويلاحظ صفاته، وهذا معنى قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ [النور: ٣٥]. أَيْ مُنَوِّرُهُمَا وَمُنَوِّرُ قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ فِيهِمَا، وَسَمَّى الْحَقُّ ذَاتَهُ نُورًا، لأَنَّ النور هو الضياء المظهر للأشياء، فإذا سمي ما يظهر غيره بالإضافة إلى الإدراك نورًا، فلأن يسمى من يظهر الأشياء من العدم إلى الوجود بالإيجاد أولى، بل هو نور النُّور، لأنه مظهر لكل نور، ﴿مَثَلُ نُورِهِ﴾ أي نور اللَّه في قلب المؤمن ﴿كَمِشْكَاةٍ﴾، المشكاة كوة غير نافذة، فشبَّه صدره بالمشكاة وشبَّه قلبه في صدره بالقنديل في المشكاة، وشبَّه معرفته بالمصباح في القنديل، وشبَّه القنديل الذي هو قلبه بالكوكب الدُّرِّي

المضي، وشبَّه إمداده بالمعرفة بالزيت الصافي، الذي يمد السِّراج في الاشتعال.

وَقَدْ أَطْلَقَ سَيِّدُ الصُّوفِيَّةِ الْجُنَيْدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ الْقَوْلَ بِأَنَّهُ: لَا يَعْرِفُ اللَّهَ إِلَّا اللَّهُ. وَقَالَ الْعَارِفُونَ: سُبْحَانَ من كان عين العلم به عين الجهل به، وعين الجهل به عين العلم به، وَسُبْحَانَ من يعرف بأنه لا يعرف.

وسئل بعض العلماء عن الله تعالى، فقال: إن سألت عن أسمائه فقد قال: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠]. وإن سألت عن صفاته فقد قال: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ إلخ السورة، وإن سألت عن أقواله فقد قال: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠]. وإن سألت عن أفعاله فقد قال: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. وإن سألت عن نعته فقد قال تعالى: ﴿هُوَ الْأَوَّلُ وَالْآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [الحديد: ٣]. وإن سألت عن ذاته فقد قال: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١]. اهـ "الْصَّاوِيّ على الخريدة".

مَعْرِفَــةَ الجَـائِزِ أَيْ وَالوَاجِـبِ   وَالمُسْتَـحِيلِ فَـأَعْـرِفِ المَآرِبِ
وَمَعْنَى وَاجِبٍ هُوَ الَّـذِي يُـرَى   لاَ يَنْتَـفِي بِالعَقْلِ مِنْ غَـيْرِ مِـرَا
والمُسْتَحِيلُ فِي العُــقُولِ مُنِعَـا   تَــصَوُّرٌ لَــهُ فَــكُنْ مُـتَّـبِعَــا
وَجَـائِــزٌ مَـا صَـحَّ نَــفْيٌ ثَبَتَـا   لَـهُ فَـشُدَّ العَـزْمَ وَاخْشَ المَقْتَا

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (مَعْرِفَـةَ الجَائِزِ): المعرفة: هبةُ حصول العلم بعد إن لم يكن، والجائز: ما يقبل الثبوت تارة والانتفاء تارة أُخرى. (أَيْ وَالوَاجِـــبِ) أي تعريفـه، والواجـب: هـو الثابـت الـذي لا يقبـل الانتفـاء بحـال مـن الأحـوال. (وَالمُسْـــتَحِيلِ) المنفـي الـذي لا يقبـل الثبوت بحال (فَأَعْرِفِ المَـآرِبِ) المطالب أو المراد الجدال، (فَكُـنْ مُتَّبِعَا) لا مبتدعًا، (فَشُدَّ العَزْمَ): النية والثبات والجد والاجتهاد، وَكَمَا قَالَ صَاحِبُ الْبُرْدَة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

كَأَنَّهُمْ فِي ظُهُورِ الخَيْلِ نَبْتُ رُبَا   مِنْ شِدَّةِ الحَزْمِ لاَ مِنْ شِدَّةِ الحُزُمِ

بعد هذا كله لا بُدّ من معرفة الحُكم: هو لغة القضاء، والقضاء لغة: الحُكم. واصطلاحًا: هو إثبات أمر لأمر، أو نفي أمر عن أمر، هذا تعريف الحُكم من حيث هو، وإذا أردت أن تعريفه العقلي بزيادة بلا توقف على عادة أو وضع واضع، وأما إذا كان يتوقف على عادة أو وضع واضع إشارة إلى العادي والشرعي.

وهو ثلاثة أقسام: عقلي، وعادي، ووضعي أي شرعي.

العقلي: ينقسم إلى ثلاثة أقسام: واجب، مستحيل، جائز.

والواجب ينقسم أيضًا إلى ثلاثة أقسام: الأول ضروري، والثاني نظري، والثالث عرضي.

الضروري: ما لا يحتاج الى تأمل أو استدلال.

والنظري: ما يحتاج إلى تأمل واستدلال.

مثال الواجب الضروري: هو كاتخاذ الجرم قدرًا من الفراغ، أو كالواحد نصف الاثنين، وهذا مقيد بوجود الجرم.

وأما الواجب النظري: كثبوت القدرة لله تعالى وجميع الصفات، أو كالواحد عشر ربع الأربعين.

وأما الواجب العرضي: كوجود شيء من الممكنات في زمن علم الله وجودها فيه كوجودنا هذا. ولكن يمكن أن توجد في زمن سيدنا نوح أو سيدنا إبراهيم، عَلَى نَبِيِّنَا وَعَلَيْهِمِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

والمستحيل ثلاثة أقسام أيضًا: ضروري، نظري، عرضي.

مثال المستحيل الضروري: كخلو الجرم من الحركة والسكون معًا في آن واحد، أو اجتماعهما معًا.

مثال المستحيل النظري: هو كثبوت الشريك لله تعالى وسائر الأضداد –أي أضداد الصفات–.

مثال المستحيل العرضي: هو وجود شيء من الممكنات في زمن علم الله عدم وجودها فيه.

(فَائِدَةٌ): الواجب النظري يقال له واجب لذاته وواجب مطلقًا. واجب لذاته لأنه غير ممتد من الغير، وواجبًا مطلقًا لكونه ثابت لله تعالى أزلاً وأبدًا، وكذلك المستحيل يقال له مستحيل لذاته ومستحيل مطلقًا. مستحيل لذاته لأنه غير ممتد من الغير، ومستحيل مطلقًا لأنه منفي عن الله سبحانه وتعالى أزلاً وأبدًا. كثبوت الشريك لله وسائر الأضداد.

الجائز قسمان: ضروري، ونظري.

مثال الجائز الضروري: هو كاتصاف الجرم بالحركة أو السكون، ولكن إثبات أحدهما واجب ضروري، وإثباته على الخصوص جائز ضروري.

مثال الجائز النظري: كإثابة العاصي وتعذيب المطيع، ولكن هذا جائز عقلاً وممتنع شرعًا. اهـ "كتاب أخينا شيخ دياب"، حفظه الله وأطال بقاءه.

فَـوَاجِبٌ أَنْ تَعْتَقِدْ كُـلَّ كَمَـالٍ   لِرَّبِنَـا وَذَاكَ فَـرْضُ الإِجْمَـالِ

قوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (فَوَاجِـبٌ أَنْ تَعْتَقِـدْ) إلخ. إذ الواجبات له تعالى كثيرة لا تنحصر، لأن صفاته تعالى الكمالية لا تتناهى، إلا أنه لا يجب علينا تفصيل ما لم يقم عليه الدليل بالخصوص، بل الواجب أن تعتقد أن كمالاته تعالى لا تتناهى على إلاجمال، وأما ما قام عليه الدليل بخصوصه فيجب إعتقاده تفصيلاً.

والدليل بأن يتأمل في ملكوت السماوات والأرض ودقائق الحكم، لتعلم بذلك أنه الواجب الوجود المالك المعبود القادر الودود العلي العظيم العليم الحكيم، فتهدى إلى ما خلقت لأجله، ثم تترقى إلى وفور حبه وشكره، فيترتب على ذلك تفجير ينابيع الحكمة من قلبك، وتقعد في مقعد صدق عند ربك.

ولنذكر لك شيئًا من ذلك لتقيس عليه غيره فنقول: قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾ [الذاريات: ٢١]. فأنت إذا نظرت إلى مبدأ خلقك وجدت ربك سبحانه وتعالى قاد والِدَيْك بزمام الشهوة، مقهورين في صورة مختارين مع تمام البسط والأنس، وفي هذا المقام أسرار عجيبة يدركها أرباب الكشف من أهل الله تعالى، حتى إذا حصل الوقاع صانك الله في قرار مكين، فخلق تلك النطفة علقة، ثم خلق العلقة مضغة، ثم مدّها وصوّرها في أحسن صورة،

فجعل الرأس في أحسن خلقه، وخلق العين والأذن والأنف، وصوَّر الوجه في أحسن صورة، وأودعها من الجمال والكمال ما لا يخفى، ثم أودع البصر في العين، والسمع في الأذن، والشم في الأنف، وخلق الفم وزيَّنه بالشفتين، وخلق اللِّسان وخلق فيه الذوق وجعله جندًا من جنوده تعالى، يترجم عما في الفؤاد من العلوم والمعارف، وجعل الرقبة حاملة لعرش الرأس في حسن بديع، وجعل فيها المنفذ الموصل الأكل والشرب إلى المعدة، وأودع البطن من الأمعاء والمصارين والقلب والكبد وغيرهما، مما لا يعلم حقيقته إلا هو تعالى، وخلق الأيدي وخلق فيها الأكف والأصابع، وجعلها مفاصل وأبدعها، والأرجل كذلك، وخلق العظام وكساها لحمًا.

ثم نفخ فيك الرُّوح، وهي سرٌّ عظيمٌ عجيب من أسراره تعالى، فتحركت في بطن أمك، وما زال بك رؤوفًا رحيمًا، حافظًا لك في أضيق مكان يوصل لك غذاءك، وأنت لا تعلم شيئًا، حتى إذا تمَّ خلقك أنزلك من الرحم من أضيق محل، فلطف بك وبأُمِّكَ، حتَّى إذا برزت ألهمك بمجرد النُّزول إلى ثدي أُمِّكَ، وأجرى فيه اللَّبن، وأنزل في قلبها الرأفة والرَّحمة، حتى أنها ترى بولك وغائطك من أحسن ما يكون، والمِنَّة له تعالى في ذلك.

ولما آن أوان الأكل خلق لك الأسنان والأضراس، ورتَّبها ترتيبًا عجيبًا مع ما فيها من كمال الزِّينة والجمال والكمال، ثم لما قرب بلوغك وكانت هذه الأسنان ضعيفة أسقطها، وأبدلها بأقوى منها، ثم إذا اكتملت فجَّر الله في فمك عينًا جارية وهي الريق، لا ينقطع جريانها ما دمت تأكل لتبتل اللقمة بها ويسهل بلعها، لا تملها النَّفْس ولا تجري على الدوام ولا تنقطع.

فانظر في هذه الحكمة العجيبة، التي أنت في غاية الافتقار إليها، ليس في قدرتك إجراؤها ولا منعها بالضرورة، فإذا نزل الطَّعام والشَّراب في المعدة صرَّفه إلى ما يشاء، فبعضه يربي به اللَّحم وبعضه يتربى به العظم، وبعضه يتربى به الشَّحم، وبعضه يتربى به الدَّم مع كمال اللِّذة حال الأكل وبعده، ثم ما فضل عن ذلك وكان فيه الإيذاء للبدن على تقدير إبقائه في البطن أخرجه من مخرجيك، وانظر لهذين المخرجين وبديع حكمتهما، وإلى إقدارك مسكهما عند تهيئ الفضلة للخروج.

وبالجملة فلم يزل سبحانه بك رؤوفًا رحيمًا ودودًا كريمًا في كل لحظة، وأنت غافل عن نفسك، وانظر إلى خروج النَّفَس ودخوله، الذي به قوام الروح حالة اليقظة والنوم والصحة والمرض، ومن أكبر عبرة العقل الذي به التمييز والتدبير وإدراك العلوم والمعارف، وما

يضر وما ينفع. ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]. فتبارك الله أحسن الخالقين، فيا ليت شعري أهذا ينبغي أن يعصى فيما أمر ونهى.

ثم إذا نظرت إلى السَّماء وكواكبها، والسَّحاب وتسخيرها، والرِّياح وتصريفها، وإلى الأرض وأنهارها، وإلى الأشجار وأثمارها، لأفضى بك إلى العجب العجاب، وعلمت أنه المحسن الوهَّاب.

اللَّهُمَّ وفقنا لما فيه رضاك، واقطعنا عن كل شيء سواك، واملأ قلوبنا من حبك وحب رسولك، واذقنا لذة الوصل من فيض فضلك، وخذ بأيدينا إن زللنا، وسامحنا إن أخطأنا، إنك أنت الجواد الكريم الرؤوف الرحيم. اهـ الشَّيْخ الدَّرْدِيرِيّ فِي "خَرِيدَتِهِ".

الْعِشْرُونَ صِفَةَ الْوَاجِبَةُ فِي حَقِّه تَعَالَى

الصِّفَاتُ النَّفْسِيَّةُ

ثُمَّ عَلَى التَّفْصِيلِ عِشْـرُونَ صِفَةْ نَفْسِيَّةٌ وَهِـيَ الوُجُـودُ وَاحِـدَةْ

وقوله رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: (ثُـمَّ) يجب عليك أيُّهَا المكلَّفُ أن تعرف أن لله سبحانه وتعالى عشرين صفة واجبة.

تنقسم إلى أربعة أقسام: نَفْسيَّة، وسَلْبيَّة، ومعاني، ومعنوية.

النَّفْسِيَّة واحدة كما قَالَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وسُميِّت نَفْسيَّة لأنها دلَّت على نفس الذَّات من غير معنىً زايدًا يُرى، وفي عدها صفة تسامح لأنهم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يُعرِّفون الصِّفة بما قابلت الذَّات، ويقولون أيضًا هي لا عين الذَّات ولا غير الذَّات ولا منفكَّة، بل قائمة بالذَّات، والقيام مواقف العقول كما يأتي إن شاء اللَّه تعالى.

فلنرجع إلى المقصود، قالوا: كنه الصِّفة لا يعلمها إلا اللَّه، ولكن القدر المطلوب من المكلف علمًا واعتقادًا جازمًا، نقول فيه هكذا: إن الله موجود، وما أوجده أحد، وما أوجد نفسه بنفسه، ولا يعلم حقيقة وجوده إلا هو.

الصِّفَاتُ السَّلْبِيَّةُ

وَخَمْسَــةٌ سَــلْبِيَّةٌ وَهْــيَ القِـدَمْ   كَـذَا البَقَا مُخَالِـفَاتٌ لِلْـعَــدَمْ
قِيَامُـــهُ بِــالنَّفْسِ وَحْدَانِيَّـــةْ   ضِـدُّ المَعَــانِي سَبْــعَةٌ سَنِــيَّةْ

قوله (وَخَمْسَــةٌ سَــلْبِيَّةٌ) وهذا هو القسم الثاني، وسُميّت سَلْبِيَّة لأنها تسلب من قلب المكلَّف أمرًا لا يليق بالله سبحانه وتعالى.

(وَهْيَ القِدَمْ): أنواعه ثلاثة: قدم زماني، وقدم إضافي، وقدم ذاتي.

القدم الزماني: كل من مرَّ عليه حوْل فأكثر، يقال له قديم عند العرب. وأما القدم الإضافي: كقدم الآباء بالنسبة للأبناء. وأما القدم الذَّاتي: وهو المقصود، هو عبارة عن أزمنة لا أول لها في جانب الماضي، أو عدم افتتاح الوجود، أو تقول هو عدم الأوليَّة.

وهل الأزلي مرادف للقديم؟، وهو ما قاله ابْنُ التِّلْمِسَانِيّ وأئمة اللُّغة، المعنى أنهما مختلفان لفظًا ومتحدان معنىً.

قوله: (الْبَقَا) بالقصر للضرورة، وهو عبارة عن أزمنة لا آخر لها في جانب المستقبل، أو تقول: عدم الآخرية وهذا هو الأوضح، ولأن ما ثبت قدمه استحال عدمه.

وقوله (مُخَالِفَاتٌ لِلْعَدَمْ): وهي عدم المماثلة.

وأوجه المخالفة عشرة: كون الشيء جرمًا، أو عرضًا، أو في جهة، أو له جهة، أو يتصف بالكبر، أو بالصّغر، أو بالزَّمان، أو

بالمكان، أو بصفات الحوادث، أو بالأغراض في الأفعال والأحكام. ولكن لا يخلو من حكمة وإن خفيت على البعض، لاستحالة العبث عليه سبحانه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

والحاصل أن معتقد الجهة فيه تفصيل، فإن كان جهة السفل فهو كافرٌ لظهور النَّقص في اعتقاده، وأما غيرها من الجهات فجهل وفسق، ولا يُكفّر إلا باعتقاد الحلول. اهـ "الْصَّاوِيّ على الخريدة".

قَالَ الشَّيْخُ الدَّرْدِيرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "الْخَرِيدَةِ": واعلم أن العالم وإن عظم في نفسه فهو بالنسبة لعظم قدرته تعالى ليس بشيء، فكيف يكون العلي الكبير القديم القدير حالّاً أو متصلاً أو منفصلاً أو مستقرًا أو على جهة لهذا الشيء الحقير الحادث الفقير.

قوله (قِيَامُهُ بِالنَّفْسِ): واختلف في معنى هذه الباء، فقيل للإله، وقيل للسَّببية، وقيل بمعنى في وهو الأقرب، والمعنى أنه مستغني في نفسه ليس باعتبار شيء آخر، ويؤخذ من الصفة جواز إطلاق النفس على الله تعالى.

وقد ورد ذلك قَالَ تَعَالَى: ﴿كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ﴾ [الأنعام: ٥٤]. ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١]. وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «لَا أُحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» إلى غير ذلك. خلافًا لمن يقول أنه لا يجوز إطلاقها على الله تعالى إلا في مقام

المشاكلة، مثلاً بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦]. اهـ "الْصَّاوِيّ".

والقيام بالنفس لها اسمان، ولها تعريفان، الاسم الأول الغنى المطلق، والثاني القيام بالنفس. والتفسيران: تفسير حقيقي، وتفسير لازم، والحقيقي هو أن اللَّه ذات وقديم، واللازم عدم الاحتياج للمحل والمخصص، ووجه اللزوم يلزم من كونه ذات لا يحتاج لمحل يحلّ به، ويلزم من كونه قديم لا يحتاج إلى مخصص، أي مُوجِد يوجده.

الموجودات بالنسبة للاحتياج وعدمه تنقسم إلى أربعة أقسام:

قسمٌ غنيٌ عن المحل وغني عن المخصص وهو ذات اللَّه سبحانه وتعالى.

وقسمٌ يحتاج إلى المحل والمخصص وهو أعراض الحوادث.

وقسمٌ غنيٌ عن المحل يحتاج إلى المخصص وهو ذوات الحوادث أي الأجرام.

وقسمٌ لا يحتاج إلى مخصص وقائم بذاته تعالى وهي صفاته عزَّ وجلَّ.

وأما المعلومات تنقسم إلى قسمين: معلوم موجود، ومعلوم معدوم.

وأما المعلوم الموجود أيضًا ينقسم الى قسمين: قديم، وحادث.

فالقديم: ذات اللَّه وصفاته، والحادث: ذواتنا وصفاتنا.

والمعلوم المعدوم كذلك ينقسم إلى: مستحيل، وجائز.

فالمستحيل: كالشريك للَّه عزَّ وجلَّ.

والجائز: جميع الممكنات التي علم اللَّه سبحانه أنها لا تكون، كإيمان الكافر، وولادة العقيم. اهـ من كتاب "المفيد في فن التوحيد"، لمؤلفه أخينا شيخ دياب، أطال اللَّه عمره.

قوله (وَحْدَانِيَّةُ): وهي: عبارة عن سلب الكثرة في الذَّات والصِّفات والأفعال، أي عدم الاثنينية، والمراد بها التَّعدد مطلقًا، واقتصر على الاثنينية لأنها مبدأ التعدد، وهذه الصفة أهم الصفات، ولذا سمي علم التوحيد بها، ولم يكفر بضدها إلا بعض الإنس، وأما الجن برمتهم فلا يتخذون مع اللَّه شريكًا سبحانه وتعالى، وإنما الكافر منهم بغير الشرك.

فوحدانية الذَّات تنفي عنه تعالى الكم المتصل والمنفصل، أي تنفي العدد في الذات متصلاً كان أو منفصلاً، فتنفي التركيب في ذاته تعالى، ووجود ذات أخرى تماثل الذات العلية، أي أنه تعالى ليست

ذاته مركبة من أجزاء متصل بعضها ببعض، وإلا لكان مماثلاً للحوادث من حيث التركيب، فيحتاج إلى من يركبه وهو محال، وليس له نظير في ذاته.

فلنرجع لتعريف الكموم، الكم في اللُّغة: معناه العدد، وفي الاصطلاح: قال بعضهم: هو عرضٌ يقوم بمتصل الأجزاء.

وحدانية الذَّات تنفي كمين: ١. كَمٌّ مُتَّصِلٌ. ٢. كَمٌّ مُنْفَصِلٌ.

الْكَمُّ الْمُتَّصِلُ تصويره بالمستحيل تركب الذات من أجزاء، ويلزم من التصوير الجسمية، ويلزم من الجسمية التحيز، النَّفي وهو ذات الله ليست مركبة من أجزاء.

الْكَمُّ الْمُنْفَصِلُ عَنِ الذَّاتِ: تصويره وجود ذات تشابه ذاته العلية، ويلزم من ذلك تعدد الذوات، ويلزم من التعدد إمكان التخالف وهو باطلٌ، والنَّفي ليس في الوجود من له ذات كذاته.

وَحْدَانِيَّةُ الصِّفَاتِ:

الْكَمُّ الْمُتَّصِلُ فِي الصِّفَاتِ: تصويره تعدد الصفات من نوع واحد، بأن يكون له قدرتان أو إرادتان فأكثر إلى غير ذلك، ويلزم من التصوير العجز، ويلزم من العجز ألا يوجد شيء من هذه المخلوقات، مثلاً إذا كانت له قدرتين واحدة للإيجاد والأخرى

للإعدام، فتكون كل واحدة عاجزة عما تقوم به الأخرى، النفي ليس لله صفتان من نوع واحد.

الْكَمُّ الْمُنْفَصِلُ عَنِ الصِّفَاتِ: تصويره وجود صفات كصفاته بأن تكون قدرة كقدرته مثلاً ويلزم من التصوير المماثلة ويلزم من المماثلة الحدوث، ليس في الوجود من له صفة كصفاته.

وَحْدَانِيَّةُ الْأَفْعَالِ:

الْكَمُّ الْمُنْفَصِلُ عَنِ الْأَفْعَالِ: منفي باتفاق، وتصويره ثبوت فعل لغيره تعالى، ويلزم من التصوير المشاركة، ويلزم من المشاركة الافتقار. والنَّفي فيه صورتان: صورة حقيقية وصورة مجازية، وكل صورة ترد على طائفة:

١. النفي بالصورة الحقيقية: ليس في الوجود من له فعل مع اللَّه، وهذه ترد على طائفة القدرية وهم المعتزلة، لأنهم أثبتوا للعبد فعل مع اللَّه.

٢. النفي بالصورة المجازية: ليس في الوجود من له فعل كفعله تعالى، وهذه الصوره ترد على طائفة الجبرية، لأنهم قالوا: ليس للعبد فعل مع اللَّه وهو كالريشة المعلقة في الهواء، وظاهر كلامهم توحيد، ولكنهم رجعوا وقالوا: لو كلّف ظلم، ونسبوا الظلم لله فهم كفار

إجماعًا، وأهل السُّنة نسبوا الفعل للعبد مجازًا من باب الإسناد للسبب، نسبة للتكاليف والكسب والاكتساب.

الْكَمُّ الْمُتَّصِلُ فِي الْأَفْعَالِ: إذا صُوِّر بالمشاركة فهو منفي، وتصويره مشاركة غيره له في فعل من الأفعال على سبيل التَّناوب أو الاجتماع، ويلزم من المشاركة الافتقار، النَّفي ليس في الوجود من له فعل مع اللَّه على سبيل التَّناوب مثلاً: يأتي الأول ويبدأ جزءًا ثم يأتي الثاني ويكمل الجزء الأول، وكل واحد يكون عاجزًا عما قام به الآخر، وعلى سبيل الاجتماع: يكمله الاثنان دفعة واحدة، هذا يؤدي إلى اجتماع مؤثرين في أثر واحد، وهذا باطلٌ.

الطوائف في عقيدة الأفعال ثلاثة: الْجَبْرِيَّةُ، وَالْقَدَرِيَّةُ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ.

فَالْجَبْرِيَّةُ قَالُوا: إن العبد والفعل والكسب والاكتساب الجميع للّه تعالى، والعبد ما هو إلا محل فقط وهو كالريشة في الهواء يحركها كيف شاء، ولذا لا يكلف وإذا كلّف ظلم، كفروا من جهتين نفيهم للشرائع ونسبة الظلم للّه، تعالى اللَّه عن ذلك علوًا كبيرًا.

أَمَّا الْقَدَرِيَّةُ هُمْ المعتزلة وقالوا: إن العبد مخلوق للّه وإرادته وقدرته مخلوقتان للّه، ولكن القدرة ممكنة، ولم ينسبوا الفعل للّه عزَّ

وجلَّ، وخوفهم بزعمهم الفاسد أن ينسبوا الشرور والقبائح لله، فوقعوا في أسوأٍ منه، وهم كفار وقيل فسّاق بالعقيدة.

أما أهل السُّنَّة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ نسبوا حقائق أربع للَّه سبحانه وتعالى وهي: العبد وإرادته وقدرته وفعله، جميعها مخلوقة للَّه وربنا سبحانه وتعالى خلق الفعل وقدرة العبد مصاحبة له، وعندهم القدرة الحادثة الفعل يقع عندها لا بها.

وأما تعريف الكسب: هو تعلُّق قدرة العبد وإرادته الحادثة بفعله الاختياري، من غير تأثير منه ولا مدخلية له في وجوده، وأما الخلق وهو تعلُّق القدرة بالمقدور خلقًا، ويسمى إيجادًا واختراعًا وإبداعًا.

الْمُوَحِّدُونَ: انقسموا على ثلاثة أقسام:

الأول: اختصر على علم ظاهر لا إله إلا اللَّه، إذ روى العقائد ولم يقم عليها الدَّليل، وجزم بها جزمًا لا يقبل النقيض بحال وهم المقلِّدون، والخلاف في الدَّليل هل هو واجب وجوب الأصول أم الفروع وهو التَّحقيق.

القسم الثاني: ترقى إلى ما يمكن معرفته بالبراهين العقلية، وهؤلاء هم العارفون والسائرون.

القسم الثالث: فتح الله عليه بأمور وجدانية أي ذوقية، فذاق الكل منه وإليه، وهم أهل المراقبة ومنهم من غاب عن الغير، وهم أهل المشاهدة.

أَنْوَاعُ الشِّرْكِ وَأُصُولُ الْكُفْرِ:

الشِّرْكُ لغة: هو إدخال النِّد. وفي الاصطلاح: عبارة عما يوجب الكفر. وأنواع الشِّرك ذكرها الإمام السَّنوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في كتاب "المقدمات" وهي ستة: شرك الاستقلال، شرك التبعيض، شرك التقريب، شرك التقليد، شرك الأسباب، وشرك الأغراض.

وأما أصول الكفر ذكرها الشيخ السَّنوسي أيضًا وعددها ستة وهي: الإيجاب الذاتي، التحسين العقلي، الربط العادي، التقليد الردي، الجهل المركب، والأخذ بظاهر الكتاب والسُّنة من غير عرضها على البراهين العقلية والقواطع الشرعية.

(فَائِدَةٌ): قَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِنِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أجمع أهل الحق على أن كل ما قاله علماء التوحيد لا يخرج عن كلمتين، وهما كل ما خطر ببالك فهو حادثٌ، واللَّه بخلاف ذلك، وإثبات ذات غير مشبهة بالذوات ولا معطلة عن الصِّفات، وناهيك بصورة الإخلاص تنفي أصول الكفر الثمانية، وهي كما قال العلَّامة

الْصَّاوِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: الكثرة، العدد، القلة، النقص، العلة، المعلول، الشَّبيه، النَّظير وفي حكمه المثيل.

فالكثرة بمعني التَّركيب، والقلة بمعني البساطة، والعدد والنقص بمعنى الاحتياج، والعلة والمعلول بمعنى إسناد الكائنات كما تقدَّم، والشَّبيه في بعض الأوجه، والنَّظير في جل الأوجه، والمثيل في كل الأوجه.

وَ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ تنفي الكثرة والعدد، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ تنفي القلة والنقص، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ تنفي العلة والمعلول، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ تنفي الشبيه والنظير والمثيل.

وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ الْقُطْبُ الشَّعْرَانِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ أثبتت الوجود للأحد ونفت التعدد وأثبتت الوحدانيه لله، ﴿اللَّهُ الصَّمَدُ﴾ نفت الجسمية، ﴿لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ﴾ نفت الوالد والولد، ﴿وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ﴾ نفت الشريك والصاحب. اهـ من "كتاب أخينا شيخ دياب".

قوله (ضِدُّ المَعَانِي سَبْعَةٌ سَنِيَّةْ): كان قوله ضد المعاني مشكل علينا، ولكن قال لي ابننا هاشم، -وهو من شباب الختمية بالأبيض- بأن الخليفة عبد العزيز، حفظه الله وأطال عمره، قال له: قُلْ ضف، والمعنى ضف للسَّلْبية المعاني، ولعله كان خطأ مطبعيًا.

صِفَاتُ الْمَعَانِي

فَقُــــــــدْرَةٌ إِرَادَةٌ كَـــــــلَامُ   وَالْعِلْـــمُ وَالحَيَـــاةُ يَـــا غُـــلَامُ

ثم شرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في صفات المعاني، وكما تُسمَّى صفات المعاني تسمى الصِّفات الذَّاتِيَّة، لأنها لا تنفك عن الذَّات.

الْقُدْرَةُ لغة: القوة والاستطاعة. واصطلاحًا: صِفَةٌ وجوديَّةٌ قديمةٌ باقيةٌ قائمةٌ بذاته تعالى، يتأتى بها إيجاد كل ممكن وإعدامه على وفق الإرادة.

قوله (صفة): أي ليست بذات، قوله (وجودية): أي تصح رؤيتها بالعين إذا كشف الحجاب، وقوله (قديمة): لأن موصوفها قديم، وقوله (باقية): لأن موصوفها باقٍ، وقوله (قائمة بذاته تعالى): بمعنى لا هي الذات ولا منفكة عنها، قوله (يتأتى بها إيجاد كل ممكن) أي إشارة للتعلقين القديم والحادث، كما يأتي إن شاء اللَّه.

والقدرة لها تعلُّقان على سبيل الإجمال:

الصلوحي القديم: وهي أي القدرة صالحة في الأزل للإيجاد والإعدام. التنجيزي الحادث: هو الإيجاد والإعدام بالفعل.

وأما قوله (يتأتى بها إيجاد كل ممكن): فالممكنات خمسة:

١. ممكن وجد وانقضى.

٢. ممكن موجود الآن.

٣. ممكن سيوجد في المستقبل.

٤. ممكن علم الله أنه لا يوجد كولادة العقيم وإيمان الكافر.

٥. ممكن علم الله أنه لا يعدم وهي المستثنيات.

مَطَالِبُ الْقُدْرَةِ:

تقول: نشهد باللِّسان ونعتقد بالجَنَان أن قدرة الله موجودة، وقديمة وباقية وقائمة بذاته تعالى، وغنية عن المخصص، ومخالفة لقدرتنا الحادثة، وواحدة، وعامة التعلق بجميع الممكنات.

قوله (إِرَادَةٌ): لغة هي: القصد. واصطلاحًا هي: صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته تعالى، تخصص الممكن ببعض ما يجوز عليه على وفق العلم، ولها تعلُّقان: صلوحي قديم، وتنجيزي قديم.

الصلوحي القديم: إن إرادة الله صالحة أزلاً أن تخصص الممكن بكل ما جاز عليه الصلاحية أي القبول، وهي أن الصفة صالحة أزلاً لتخصيص الممكن وإن لم يكن هناك ممكن.

التنجيزي القديم: هو تخصيص الممكن ببعض ما جاز عليه على وفق العلم أي ما علم الله.

والإرادة غير الأمر عند أهل السُّنة والجماعة، وعندهم جميع الكائنات واقعة بمراده عزَّ وجلَّ كانت خيرًا أم شرًّا، والإنسان ينسب الشر لنفسه أدبًا مع الله وللتنزيه، ولكن في مقام التبيان يوضح ذلك.

وعند المعتزلة الأمر والإرادة شيء واحد، ولكن عند أهل السُّنة الأمر شيء والإرادة شيء آخر، قد يجتمعان وقد يفترقان، يجتمعان في إيمان سيدنا أبي بكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وجميع المؤمنين أمرهم اللَّه بالإيمان وأراده لهم، ولم يأمرهم بالكفر ولم يرده لهم، وأما الكفار كأبي جهل لعنه اللَّه أمره اللَّه بالإيمان ولم يرده له وأراد له الكفر ولم يأمره به، ولا يسأل عما يفعل جلَّ جلاله.

وَلَمَّا دَخَلَ الْأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِنِيُّ عَلَى الْمُعْتَزِلِيّ واسمه أحمد، وكان جالسًا مع حاكم ذلك الزمان، قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: سُبْحَانَ من تنزه عن الفحشاء، قَالَ الْأُسْتَاذُ: سُبْحَانَ من لا يقع في ملكه إلا ما يشاء، قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: أيريد ربك أن يعصى؟، قَالَ الْأُسْتَاذُ: أيُعصى كُرهًا عليه، قَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: يا هذا أرأيت إن خلقني فيما اختار، واستعملني فيما يختار، وبعد ذلك إن شاء أدخلني الجنة أو النار، أفي ذلك عدل أم جار.، قَالَ الْأُسْتَاذُ: يا هذا إن كان خلقك فيما تختار أنت فقد ظلمك، وإن كان خلقك فيما يختار هو فلا يُسأل عما يفعل، وهنا أُلجم الْمُعْتَزِلِيّ حجرًا اهـ.

وَقَالَ الشَّيْخُ الدَّرْدِيرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "خَرِيدَتِهِ":

وإن يكن بضده قد أمرا   فالقصد غير الأمر فأطرح المرا

والضمير يعود عليه تعالى، أي وإن كان ذلك الكائن قد أمر اللَّه تعالى بضده ككفر أبي جهل لعنه اللَّه وكذا كفر بقية الكافرين فإنه كائن، وقد أمر اللَّه بضده وهو الإيمان ونهى عنه، ومع ذلك هو مراد له تعالى بدليل وقوعه.

والحاصل أن كل كائن أي واقع، فهو مراد له تعالى سواءً أمر به أم لا، ومفهومه أن ما لم يكن فهو غير مراد الوقوع سواء أمر به كالإيمان من أبي جهل أو لم يأمر به كالكفر من المؤمنين. والأقسام أربعة كما علمت، والدليل قوله صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (مَا شَاءَ اللَّهُ كَانَ، وَمَا لَمْ يَشَأْ لَمْ يَكُنْ).

والقبيح إنما هو كسب القبائح والاتصاف بها لا خلقها وإرادتها، وبالجملة ما ذهبوا إليه يشهد بفساده العقل والنقل. اهـ الدَّرْدِيرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقوله (كَلَامُ):

أي صفة الكلام: وهو صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته العلية، ومنزه عن الحروف والأصوات واللحن والإعراب وجميع صفات الحوادث، ويتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق دلالة، وله ثلاثة تعلقات: صلوحي قديم، وتنجيزي قديم، وتنجيزي حادث.

الصلوحي القديم: كلام الله صالح أزلاً أن يأمرنا وينهانا فيما لا يزال.

التنجيزي القديم: باعتبار دلالته على ذاته وصفاته أزلاً وأبدًا.

التنجيزي الحادث: الأمر والنهي الواقعان فيما لا يزال بالفعل.

وقوله (وَالْعِلْمُ):

وهو صفة وجودية قديمة باقية قائمة بذاته تعالى، تتعلق بالواجبات والمستحيلات والجائزات تعلق إحاطة، بمعنى عدم غيبة موجود ما، وله تعلق واحد: وهو تنجيزي قديم.

التنجيزي القديم: إن الله يعلم بعلمه أن الواجب في حقه واجب، والمستحيل في حقه مستحيل، والجائز في حقه جائز، قال تعالى: ﴿أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ﴾ [الملك: ١٤].

وَقَالَ السَّيِّدُ الْمَحْجُوبُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

هُوَ المُحِيطُ فَمَنْ يَحْتَاطُ حَوْطَتَهُ ... إِنَّ الإِحَاطَةَ فِي ذَا الشَّأْنِ تَضْلِيلُ

وَقَالَ الإِمَامُ الْغَزَالِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

علم الإله الواحد القيوم ... ليس كمثل سائر العلوم

لأن ليس له بداية ... ولا لمعلوماته نهاية

وعلمه بها على التفصيل ... لا عن ضرورة ولا عن دليل

وقوله (وَالحَيَاةُ):

أَمَّا الْحَيَاةُ فِي حَقِّ الْحَادِثِ فَهِيَ: صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ تحل في البدن عند دخول الرُّوح فيه، وحقيقتها لا يعلمها إلا اللَّه جلَّ شأنه، وأما بالنِّسبة للفن المُدوَّن فهي: صِفَةٌ وُجُودِيَّةٌ قَدِيمَةٌ بَاقِيَةٌ قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى، تصحح له أن يتصف بجميع الصفات ولا تعلُّق لها.

قوله (يَا غُلَامُ): ملاطفةٌ منه، وهي يا فتى يا هُمام، والمراد به طالب العلم، قاله الشيخ صالح من "شرحه لهذه العقيدة".

قوله (وَبَصَرٌ وَالسَّمْع): فهي في حق الحادث. البصر: قوة أودعها اللَّه في العينين. والسمع: قوة أودعها اللَّه في الأذنين، وأما باعتبار الفن المُدوَّن يجمعان لاتحاد التعلُّق والمتعلَّق.

وهما أي السمع والبصر: صفتان وجوديتان قديمتان باقيتان قائمتان بذاته تعالى، يتعلَّقان بجميع الموجودات تعلُّق إحاطة.

ولهما ثلاثة تعلُّقات:

صلوحي قديم: وهو أن اللَّه ببصره وسمعه صالحان أن يتعلقا بالممكنات قبل وجودهما. التنجيزي القديم: يُبصر ويُسمع ذاته وصفاته أزلاً وأبدًا على ما هي عليه. التنجيزي الحادث: يُبصر ويُسمع ذواتنا وصفاتنا فيما لا يزال.

(فَائِـدَةٌ): يقال إِنَّ الشَّيْخَ عَبْد السَّلَام ابْن مَشَيشٍ رَضِـيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يكثر النظر لِلْشَّيخْ أَبِي الْحَسَنِ الشَّاذِلِيّ، وهو تلميذه، فقيل له في ذلك، فأعطى كل طالب عصفورًا، وقال لهم: كل منكم يذبح هذا العصفور بحيث لا يراه أحد ويأتيني به، وذبح كل منهم العصفور، وأما الشيخ أبو الحسن الشاذلي جاء به حيًّا، فقال له الشيخ: لِمَ لَمْ تذبحه، فقال: أنت قلت حيث لا يراك أحد، ورأيت أن اللَّه جلَّ جلاله مطلعٌ عليَّ، فقال لهم الشيخ: فهمتم القصد؟، قالوا: نعم.

الصِّفَاتُ الْمَعْنَوِيَّةُ

وَبَصَرٌ وَالسَّمْع ثُمَّ سَبْعُ تُسَمَّى مَعْنَوِيَّةً تُنَوَّعُ

وقوله (ثُمَّ سَبْعُ تُسَمَّى مَعْنَوِيَّةً تُنَوَّعُ):

لأنها ملازمة لها، أي المعنويَّة ملازمة للمعاني، ونعرفها بالاعتبار، ونقول لكونه تعالى قادرًا: صفة ثبوتية عبارة عن قيام القدره بالذَّات. ولكونه تعالى مُريدًا: صفة ثبوتية عبارة عن قيام الإرادة بالذَّات، وهكذا إلى آخر الصفات المعنوية.

وقوله (لكونه): هو الحاصل المتقرر، كما قال صاحب "الجوهرة" رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:

حَيٌّ عَلِيمٌ قَادِرٌ مُرِيدٌ سَمِيعٌ بَصِيرٌ مَا يَشَاءُ يُرِيدُ

قَالَ الشَّيْخُ الصَّاوِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ فِي "الشَّرْحِ" لَهَا:

إشارة أن المشيئة والإرادة شيء واحد ومترادفان، فما أراده أزلاً أظهره فيما لا يزال. ومراداته تعالى: هي شؤونه في خلقه كالخلق والرزق والإحياء والإماتة والخفض والرفع.

حكي أن ابْن الشَّجَرِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ كان يقرر في درسه قوله تَعَالَى: ﴿كُلَّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾ [الرحمن: ٢٩]. فسأله سائل وقال له: ما شأن ربك اليوم؟، فأطرق رأسه وقام مُتحيّرًا، فنام فرأى النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فسأله عن ذلك، فقال له: السائل لك الخضر، فإذا

أتاك في غدٍ وسألك، فقل له: شُؤُونٌ يُبْدِيهَا وَلَا يَبْتَدِيهَا، يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَضَعُ آخَرِينَ، فلما أصبح أتاه وسأله فأجابه بما ذكر، فقال له: صَلِّ عَلَى مَنْ عَلَّمَكَ، ومشى سريعًا.

وقوله (يُبْدِيهَا): أي يظهرها من الخفاء حين وقتها الذي قدره فيها، (وَلَا يَبْتَدِيهَا) علمًا لأن علمه محيط كما تقدَّم. اهـ "الْصَّاوِيّ على الجوهرة".

فَقَـــادِرٌ مُرِيـــدٌ هُـــوَ الحَـــيُّ   وَعَـــالِمٌ مُتَـــكَلِّمٌ عَلِـــيُّ
وَهُـــوَ السَّـمِيعُ وَالبَصِـيرُ جَـلَّا   عَنْ ضِدِّهَا الجَمِيعِ فَاحْصِ النَّقْلَا

قوله (فَقَادِرٌ): أي بقدرة واحدة بها الإيجاد والإعدام كما تقدَّم.

قوله (مُرِيـدٌ): بإرادة واحدة بها التَّخصيص كما علم أزلاً كما تقدَّم.

أيضًا قوله (هُوَ الْحَيُّ): بحياة واحدة قائمة بذاته العليَّة جلَّ وعلا، تنزه عن صفات الحوادث، بل إذا كنا حياتنا لا نعلم كيفيتها فكيف بحال الباري جلَّ وعلا.

قوله (وَعَالِمٌ): بعلم واحد محيط بالأشياء كلها قديمها وحادثها واجبها ومستحيلها وجائزها.

قوله (مُتَكَلِّمٌ): بكلام ليس بحرف ولا صوت كما تقدَّم.

قوله (عَلِـيُّ): أي الله تعالى مرتفع ارتفاعًا معنويًا بدليل قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ وَهُوَ الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ﴾ [الأنعام: ١٨]. اهـ شارح "العقيدة" الشيخ صالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله (عَنْ ضِدِّهَا الجَمِيعِ فَاحْصِ النَّقْلَا): أي أضبط المنقول لأن الإحصاء هو الضبط.

وَقَــدْ تَعَلَّقَــتْ إِرَادَةُ الــوَلِيِّ بِالمُمْــكِنَاتِ مَعْهَا قُــدْرَةُ العَلِيِّ
بِـــكُلِّ مَعْلُومَـــاتِهِ تَعَلَّـــقَا العِـلْمُ وَالكَـلَامُ فَـاحْفَظْ تَرْقَـى
تَعَــلَّقَ السَّــمْعُ كَـذَاكَ البَصَــرْ بِكُـلِّ مَـوْجُودَاتِهِ كَـذَا تَــبَصَّرْ
أَمَّـــا الحَــيَاةُ لَا تَعَلُّـــقٌ لَهَــا وَكُلُّ نَقْصٍ انْفِ عَنْ رَبِّ النُّـهَى

ثم شرع المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في التعلُّقات وهو قوله: (وَقَـدْ تَعَلَّقَتْ إِرَادَةُ الوَلِيِّ بِالمُمْكِنَاتِ مَعْهَا قُدْرَةُ العَلِيِّ).

والتعلُّق: هـو اقتضـاء الصِّفة واستلزامها أمـرًا زائـدًا علـى قيامهـا بالذَّات، والاقتضاء معناه الطلب.

والتعلُّق ينقسم إلى أربعة أقسام: تأثير، تخصيص، إحاطة، دلالة.

أما التَّأثير: فهو الخلق والإيجاد والإبداع والإعدام.

والتَّخصيص: هو التَّمييز أي تمييز الأشياء عن بعضها البعض.

والإحاطـة: هـي عـدم غيبـة موجـود مـا أو عـدم خـروج الشـيء بالكلية.

والدلالة بمعنى الفهم، والفهم يرجع للمخاطبين.

والمتعلَّق بالفتح أقسامه ثلاثة: الممكن، الموجود، المعلوم.

الممكن: تعلق القدرة والإرادة.

الموجود: تعلق السمع والبصر.

المعلوم: تعلق العلم والكلام.

والمتعلِّق بالكسر: هي الصفات الستة، وتعلقهن درجات.

(أَمَّا الحَيَاةُ لَا تَعَلُّقٌ لَهَا).

قوله (وَكُلُّ نَقْصٍ انْفِ عَنْ رَبِّ النُّهَى): النُّهى أي العقل، والنَّقص هو المستحيل والعبث، وكل صفة من صفات الحوادث، لأنه قال جلَّ شأنه: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١].

وَاخْشَ اعْتِقَادَ الجَبْرِ وَالحُلُولِ وَالاِتِّحَادِ لَا تَكُنْ فُضُولِي

قوله (وَاخْشَ اعْتِقَادَ الجَبْرِ وَالحُلُولِ):

وَالْجَبْرِيَّةُ: هم قومٌ يقولون إن الإنسان مجبورٌ ظاهرًا وباطنًا، وهو كالحجر الملقي لا يتحرك إلا بمحرك، أو كالريشة المعلقة في الهواء يحركها الهواء حيث شاء، ففي ظاهر الأمر كلامهم توحيد، لكن رجعوا وقالوا إذن لا تكليف بل قالوا إذا كلّف ظُلم، وهم كفروا بالجهتين، بنفيهم للشرائع ونسبتهم الظلم إلى الله جلَّ شأنه وتعالى عن ذلك علوًا كبيرًا.

قوله (وَالحُلُولِ): وهو اعتقاد اليعقوبية والنسطورية من النَّصارى، لأنهم يقولون إن مريم ولدت إلهًا، ويقولون أيضًا إن الله حلَّ في ذات عيسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، واتحدَّ بها فصار إله، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

أما الملكانية قالوا سيدنا عيسى هو عبد الله ورسوله.

أما الإسرائيلية هم أهل التبعيض، وقالوا الآلهة ثلاثة الله إله ومريم إله وعيسى إله، والآية واضحة ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾ [المائدة: ٧٣].

وقوله (وَالاتِّحَادِ): عطف على الحلول: وهو الامتزاج بحيث لا اثنينية. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى فِي كِتَابِهِ الْعَزِيزِ: ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [المائدة: ١٧].

قوله (لَا تَكُنْ فُضُولِي): أي منشغلاً بما لا يعنيك، وكما قال صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في الحديث: «إِنَّ مِنْ حُسْنِ إِسْلَامِ الْمَرْءِ تَرْكُهُ مَا لَا يَعْنِيهِ». قَالَ الْعُلَمَاءُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: ما يعني الإنسان إما درهم لمعاشه أو حسنة لمعاده اهـ.

وَمَــنْ حَكَـمْ بِالعِلَّـةِ أَوْ بِـالطَّبْعِ أَوْ بِالـقُــوَى لِكُــفْرِهِ مُسْـتَدْعِ

وقوله (وَمَــنْ حَكَـمْ بِالعِلَّـةِ): من أهل الضلال أي بتأثيرها، بأن يقول إن الأشياء علة، أي سبب في وجود شيء من غير أن يكون لله تعالى فيها اختيار.

(أَوْ بِالطَّبْعِ): أي بتأثير الطَّبع، أي الطَّبيعة والحقيقة، بأن يقول إن الأشياء المذكورة تؤثر بطبعها، والفرق بين تأثير العلة والطَّبع وإن اشتركا في عدم الاختيار، أن التَّأثير بالطَّبع يتوقف على وجود الشرط وانتفاء المانع، كالإحراق بالنسبة للنار، فإنه يتوقف على شرط مماسة النار للشيء المحرق وانتفاء مانع البلل فيه مثلاً.

وأما التَّأثير بالعلة فلا يتوقف على ذلك، بل كلما وجدت العلة وجد المعلول، كحركة الخاتم بالنسبة لحركة الأصبع، ولذا كان يلزم اقتران العلة بمعلولها، ولا يلزم اقتران الطَّبيعة بمطبوعها أي لتخلف الشَّرط أو انتفاء المانع.

قوله (أَوْ بِـالْقُوَى لِكُفْـرِهِ مُسْـتَدْعِ): أي يا طالب، هذا هو قول المعتزلة يقولون التأثير بواسطة القوة المودعة التي خلقها اللَّه تعالى في الإنسان، وهذا قول بعض أهل السُّنة، أي القول بكفرهم، والقول الثاني قال هم فسَّاق بالعقيدة وليس كفارًا، وهذا قول الشيخ الدَّرْدِير وغيره رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ.

والقول الحق عند أهل السُّنة: إن الفعل يقع عند القدرة الحادثة لا بها، لأنه يقع بواسطة القدرة القديمة، وأما من قال يقع بمجموع القدرتين، فهذا قول باطل، ولو قال به بعض أهل السُّنة، لأنه مدسوس عليهم، ولأن أهل السُّنة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ يثبتوا خصائص أربعة للعبد وهي: مخلوقه لله وهي ذات الشخص، وقصوداته وميولاته، القدرة الواقع بها الفعل، والفعل ذاته.

وأما فائدة وقوع الفعل عند القدرة الحادثة لأنه يأتي التكليف ويظهر قوله تعالى: ﴿لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

لِأَنَّـــهُ يَمِيـــلُ لِلتَّسَلْسُـــلِ   وَالدَّوْرِ وَهُـــوَ خَـــاسِرٌ مُزَلْـــزَلِ

وقوله (لِأَنَّهُ يَمِيلُ لِلتَّسَلْسُلِ): أي القول بما تقدَّم يؤدي للتَّسلسل المؤدي لعدم الآخرية، والقول بهذا فاسد كما لا يخفى، وهو مؤدي للدَّور المؤدي إلى توقف كل على الآخر، ومثال ذلك كما أن واحد يوجد والآخر يعدم، فالذي أوجد عاجز عن الإعدام والذي أعدم عاجز عن الإيجاد، وهذا أيضًا باطل.

(خَـاسِرٌ) أي في قوله واعتقاده، (مُزَلْـزَلِ) معطوف على خاسر.

الصِّفَاتُ الْمُسْتَحِيلَةُ فِي حَقّهِ تَعَالَى

وَالمُسْتَحِيلُ ضِدُّ مَا تَقَدَّمَا فِي حَقِّ مَوْلاَنَا اعْتَقِدْ وَالْزَمَا
عَدَمٌ ثُمَّ الحُدُوثُ وَالفَنَاء مُمَاثِلَاتِ الخَلْقِ نَزِّهْ رَبَّنَا
وَعَنِ الاِحْتِيَاجِ وَالتَّعَدُّدِ اعْلَمِ وَالعَجْزِ وَالإِكْرَاهِ وَالجَهْلِ افْهَمِ
وَالمَوْتِ ثُمَّ بَكَمٍ ثُمَّ عَمَى وَصَمَمٍ ضِدَّ مَعْنَوِيٍ الْزَمَا

ثم شرع رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في المُستحيلات بعد أن قدَّم القسم الأول وهو الواجبات.

قوله (وَالمُسْتَحِيلُ ضِدُّ مَا تَقَدَّمَا): والمراد بالضدِّ هنا الضدّ اللّغويّ: وهو مطلق المنافي، وأما الاصطلاحي: وأنواع المنافاة عند أهل المنطق الأربعة انظرها إن شئت في "الخريدة" لِلدَّرْدِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ.

قوله (فِي حَقِّ مَوْلاَنَا اعْتَقِدْ وَالْزَمَا): اعتقد ما ذكرته لك، والزم الأدب مع الله تعالى ومع خلقه الذين اصطفاهم.

فإذا علمت ذلك يستحيل عليه عشرون صِفَة وهي ضِدُّ الواجبات العشرين. والواجب: هو الثابت الذي لا يقبل الانتفاء بحال من الأحوال فيستحيل عليه تعالى.

(الْعَدَمُ) لأنه يقابل الوجود، ويستحيل عليه (الْحُدُوثُ) لأنه يقابل القدم، و(الْفَنَـاء) وهو ضد البقاء، و(الْمُمَاثَلَـة) وهي ضد المخالفة. وقد سبق أيضًا وجوب المخالفة للحوادث. و(الخَلْق) مضاف إليه.

(نَـزِّهْ رَبَّنَـا) عن كل شيء لا يليق به، وإلا فهو منزهٌ سبحانه وتعالى. (وَعَـنِ الاِحْتِيَـاجِ) وهو ضد القيام بالنَّفْسِ، بأن يحتاج إلى محل يحل فيه وإلى موجد يوجده، وكل ذلك مستحيل لأنه ثبت له سبحانه وتعالى القيام بالنَّفْس.

وقوله (وَالتَّعَـدُّدِ): في الذَّات والصِّفات والأفعال، كل ذلك مستحيلٌ عليه تعالى، لأنه من صفاته التي اتصف بها الوحدانية: وهي عدم التعدد في الذَّات والصفات والأفعال، كما تقدَّم ذلك.

(اعْلَمِ) العلم: هو إدراك الشيء على ما هو به، وإذا قلنا من غير سبق خفاء يكون خاص بالله تعالى، وإلا فيكون عامًّا. وقوله (وَالعَجْـز) ضد القدرة، (وَالإِكْرَاه) ضد الإرادة، (وَالجَهْل) ضد العلم، (افْهَمِ) معطوف على اعلم.

(وَالمَـوْت) ضد الحياة، (ثُمَّ الْبَكَم) ضد الكلام، (ثُمَّ الْعَمَى) ضد البصر، (وَالْصَّـمَم) ضد السَّمع، وضد الصِّفات المعنوية، وهو كونه عاجزًا، وكونه مكرهًا، وكونه جاهلاً، إلى آخر الصفات المعنويَّة.

الجَائِزُ فِي حَقِّهِ تَعَالَى

وَالجَائِزُ المَعْلُومُ فِي حَقِّ العَظِيمْ إِسْعَادُ عَاصِي وَإِشْقَاء مُسْتَقِيمْ
وَرُؤْيَةُ الْمَوْلَى مَنَامَاً جَائِزَةْ فِي الدُّنْيَا فِي الأُخْرَى عَيَانَاً وَارِدَةْ

ثم شرع رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ في الجائز، وهو أي (الجَائِز): فعل كل ممكن أو تركه لأنه فاعل بالاختيار المطلق.

وقول المُصنِّف (وَالجَائِزُ المَعْلُومُ فِي حَقِّ العَظِيمْ) هو (إِسْعَادُ عَاصِي وَإِشْقَاء مُسْتَقِيمْ) هذا جائزٌ عقلاً مستحيلٌ شرعًا، لأن اللَّه سبحانه وتعالى وعد الطائعين دخول الجنة، ووعده لا يتخلف، ولكن لو نظرت قوله تعالى: ﴿يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٣]. لعرفت قول المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ (إِسْعَادُ عَاصِي وَإِشْقَاء مُسْتَقِيمْ) فهو قول صحيح مائة في المائة. وتعرض المُصنِّف للجائزات تفصيلاً لكثرة الخلاف فيها وللاهتمام بشأنها.

ومن الجائز: (وَرُؤْيَةُ الْمَوْلَى مَنَامَاً جَائِزَةْ فِي الدُّنْيَا)، ووقعت لكثير من الصالحين. وَمِنْهُمْ عَلَى سَبِيلِ الْمِثَالِ الإِمَام أَحْمَد بْن حَنْبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ، قَالَ: رَأَيْتُ اللَّهَ فِي الْمَنَامِ تِسْعًا وَتِسْعِيْنَ مَرَّةً، وَتَمَنَّيْتُ أَنْ أَرَآهُ الْمِائَة، فَرَأَيْتُهُ فقُلْتُ لَهُ: بِمَا يُتَقَرَّبُ بِهِ الْمُتَقَرِّبُونَ، قَالَ: بِكَلامِي يَا أَحْمَدُ، قُلْتُ: بِفَهْمٍ أَوْ بِغَيْرِ فَهْمٍ؟، قَالَ: بِفَهْمٍ وَبِغَيْرِ فَهْمٍ اهـ.

واعلم أنه إذا رُؤي في المنام فقد يرى بالصِّفة التي ذكرت في التوحيد وهي حقٌّ، وقد يُرى بصفة الحوادث، فإن رُوي كذلك وأمر الرَّائي بما يخالف الشَّرع كأن قال له أسقطت عنك التَّكليف فهو الشَّيطان، فإن أطاعه وعمل بمقتضاه فهو ضالٌّ مُضلٌّ قد خسر الدنيا والآخرة، وإن لم يأمره بذلك فهو رسول من عند الله تعالى، فإذا علمت ذلك تعلم أن الشَّيطان قد يتمثل بالمولى جلَّ جَلَالُهُ على أحد قولين.

وأما النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فلا يتمثل به الشيطان، فمن رأى النبي عليه الصلاة والسلام فقد رآه حقًّا، لما في الحديث: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي حَقًّا فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لَا يَتَمَثَّلُ بِي». فإذا رأى شخص النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له مثلاً: أسقطت عنك التَّكاليف، فالرؤية حقٌّ والغلط من الرَّائي، والفرق أن الله ليس كمثله شيء، فتمثيل الشَّيطان به لا يضرّ في العقيدة، لقيام البرهان على خلافه، وأما النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فهو بشرٌ، فلو تمثل الشَّيطان به لأفسد الدِّين، وسمعت من شيخنا المُؤَلِّف: أن كبار الأولياء لا يتمثل بهم الشيطان أيضًا، لعموم قوله تعالى ﴿إِنَّ عِبَادِي لَيۡسَ لَكَ عَلَيۡهِمۡ سُلۡطَانٌ﴾ [الحجر: ٤٢]. انتهى "الصَّاوِيّ على الخريدة".

وأما في القيامة واردة بنصِّ الكتاب، وهو قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ [القيامة: ٢٢-٢٣]. ولأن سيدنا موسى طلبها، ولو لم تكن جائزة لما طلبها، وكذلك الله سبحانه وتعالى علَّقها على جائزٍ وهو استقرار الجبل، واستقراره جائز، إذا المعلّق عليه أيضًا جائزٌ. وسيدنا النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رآه ليلة الإسراء والمعراج بالبصر لا بالقلب فقط. انظر "الخريدة شرح الدَّرْدِير" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وكل من الصلاح والأصلح وبعثة الرسل عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ والثَّواب والعقاب وكذلك الإشقاء والإسعاد كما تقدَّم، كل ذلك جائز، وليس يجب على الله شيء من ذلك، تعالى الله عن ذلك علوًا كبيرًا.

الْوَاجِبُ وَالْمُسْتَحِيلُ فِي حَقِّ الرُّسُلِ

وَوَاجِبٌ أَنْ يُعْتَقَدْ فِي الرُّسُلِ   أَمَانَةٌ صِدْقٌ وَتَبْلِيغٌ جَلِي

ثم انتقل يتكلَّم على القسم الثاني، وهو ما يتعلق بالرُّسُل الكرام عَلَيْهِم أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ.

والرَّسُول في اللُّغة: هو المُرسل من مكان إلى مكان آخر، وفي الاصطلاح: إنسانٌ ذكرٌ حُرٌّ من بني آدم، أُوحي إليه بأحكامٍ، إن أُمر بتبليغها فهو نبيٌ ورسولٌ، وإن لم يؤمر بتبليغها فهو نبيٌ فقط.

ورُسل العرب خمسة وهم: سيدنا محمد، وسيدنا إسماعيل، وسيدنا صالح، وسيدنا هود، وسيدنا شعيب، عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ومن لغتهم السريانية هم: سيدنا إبراهيم، وسيدنا لوط، وسيدنا نوح، وسيدنا إدريس، وسيدنا يونس.

وأما سيدنا يعقوب واسمه إسرائيل هو وبنوه لغتهم العبرانية، إس هي عبد ورائيل هي الله والمعنى عبد الله.

وأولو العزم من الرُّسُل هم خمسة: سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا موسى، وسيدنا عيسى، وسيدنا نوح، عَلَيْهِم أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، وفضلهم على هذا الترتيب اهـ من كتاب "المفيد" لأخينا شيخ دياب حفظه الله.

ولهم شُرُوط شرعية وشروط عقلية.

أما الشُّرُوط الشَّرعية فستة: البشرية، الذُّكورية، الحرية، كمال العقل، حدة الذكاء، السَّلامة من العيوب المنفرة، سواء كان تتعلق بالخَلْق أو بالخُلُق.

وقوله (البشرية): يخرج الملائكة والجن. وقوله (الذُّكورية يخرج النساء، وإذا قال إنسان يوجد امرأة رسول فهذا كفرٌ صريحٌ، أما النُّبُوة قد قيل بها، وهو غير صحيح، والمعتمد إنهن صدِّيقات مثال: أمنا حواء، وآسيا، ويوحانس أم سيدنا موسى عَلَيْهِ السَّلَامُ، ومريم عَلَيْهَا السَّلَامُ. وقوله (كمال العقل) أي البعثة عند الأربعين. وأما قوله (السلامة من العيوب المنفرة) سواء كان في ظاهر الجسد كما يقولون في حق سيدنا أيوب وسيدنا يعقوب، من اعتقد أن الأول أكله الدُّود، والثَّاني فقد بصره فهذا كفرٌ صريحٌ.

وأما الشُّروط العقلية فهي أربعة: كما قال المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: (وَوَاجِبٌ أَنْ يُعْتَقَدْ فِي الرُّسُلِ أَمَانَةٌ صِدْقٌ وَتَبْلِيغٌ جَلِي).

والأمانة: هي حفظ اللَّه تعالى بواطنهم وظواهرهم من التَّلبس بمنهي عنه، ولو نهي كراهة ولو حال الطُّفُولة وهي المسماة بالعصمة. اهـ " الدَّرْدِير".

قال الْصَّاوِيّ في "الحاشية على الخريدة": وقوله (ولو حال الطُّفولة): إن قلت أنه لا تكليف قبل البعثة فلا معصية قبلها، فكيف يقال إنهم معصومون من المعاصي قبل النُّبُوة، والحال أنه لا معصية قبلها. قلت: المراد بالصُّورة التي يحكم عليها بأنها معصية بعد البعثة.

وإن قلت إن إخوة يوسف قد فعلوا معه ما ظاهره حرام فعلى أنهم ليسوا بأنبياء فلا إشكال، وأما على أنهم أنبياء فهو مشكل.

أُجيب: بأنهم وإن كانوا أنبياء إلا أنهم ليسوا برُسُل مشرعين، فالنبي أن يفعل بمقتضى الحقيقة وباطن الأمر كما في خرق السفينة وقتل الغلام الواقع من الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهو بحسب الظاهر حرام وبحسب الباطن مصلحة، فإخوة يوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ أعلمهم اللَّه بالإلهام أو الوحي أن يوسف يملك مصر، وتحصل له السَّيادة العُظْمى بها، فتعيَّن عليهم أن يفعلوا أمورًا وإن كان ظاهرها الحرام إلا أنها في الباطن والواقع واجبة عليهم، ليتوصلوا بذلك إلى وصوله مصر، ففعلهم هذا حرام ظاهرًا مأمور به باطنًا، ويقال فيهم كما قال الخضر عَلَيْهِ السَّلَامُ: ﴿وَمَا فَعَلْتُهُ عَنْ أَمْرِي﴾ [الكهف: ٨٢]. وكذا يقال في أكل أبينا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من الشجرة.

ويوضح المقام قول الْعَارِف الْجِيلِيّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ:

ولي نكتة غراء سوف أقولها   وحق لها أن ترعويها المسامع
هي الفرق ما بين الولي وفاسق   تنبَّه لها فالأمر فيه بدائع
وما هو إلا أنه قبل وقعه   يخير قلبي بالذي هو واقع
فأجني الذي تعطيه في مرادها   وعيني لها قبل الفعال تطالع
فكنت أرى منها الإرادة قبل ما   أرى الفعل مني والأثير مطاوع
إذا كنت في أمر الشريعة عاصيًا   فإني في حكم الحقيقة طائع

ويقول أيضًا: ما يوهم خلاف الأمانة في حقهم كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿لِيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ٢]. ﴿وَوَضَعْنَا عَنْكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢]. بأن المراد ذنوب أمته ووزرهم، أو المراد وزره على فرض وقوعه، أي إن وقع منك ذنب أو وزر فقد عفوناه لك ووضعناه عنك، أو المراد بالوزر أثقال الوحي، فإنه كان يثقل عليه نزول الوحي فأخبره الله بأنه وسَّع صدره ووضع عنه أثقال الوحي، فكان بعد ذلك لا يثقل عليه اهـ "الْصَّاوِيّ مِنَ الْخَرِيدَةِ".

لا يقع منهم أي الأنبياء عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ المنهي ولو خلاف الأولى، لكن قد يقع منهم المكروه وخلاف الأولى، لا على وجههما بل على وجه التَّشريع كالبول من قيام، والشُّرب كذلك، وترك بعض الرَّغائب، وأما المحرمات فلا تقع منهم إجماعًا. والمراد

بالتشريع ليدل على أن هذا مُباح، وإن كان خلاف الأولى أو مكروهًا ويكون في فعل ذلك مشرَّعًا لا مريد لفعل المكروه أو خلاف الأولى. اهـ "الْصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

قوله (صِدْقٌ): أي مطابقة الخبر للواقع ولو في حال المزح، لما في الحديث: «إِنِّي أَمْزَحُ وَلَا أَقُولُ إِلاَّ حَقًّا».

والصدق أقسامه ثلاثة: صدقٌ في دعواهم الرسالة، وصدقٌ في تبليغ الأحكام الشرعية، وصدُق في أمورهم العادية.

ويؤول لما ظاهره الكذب في حق الأنبياء، كما في واقعة سيدنا إبراهيم الخليل عَلَيْهِ السَّلَامُ مع الأصنام، في قوله تعالى: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا﴾ [الأنبياء: ٦٣]، فإنه كلام خارج مخرج التَّقريع والتَّهديد والتَّنكيب، لأنه لم يكن عند الأصنام غيره، فما فائدة قولهم ﴿مَنْ فَعَلَ هَذَا بِآلِهَتِنَا﴾ [الأنبياء: ٥٩].

و(الفطانة): وهي ذكاوة العقل، ومعرفة طرق الدعاوى الكاذبة من الصحيحة. وقوله (وَتَبْلِيغٌ جَلِي): أي واضح.

والتَّبليغ أقسامه ثلاثة: قسمٌ أُمروا بتبليغه فلم يكتموا منه حرفًا. وقسمٌ أُمروا بكتمانه فلم يبلغوا منه حرفًا. وقسمٌ خيِّروا بين كتمانه وتبليغه فبلغوا البعض وكتموا البعض. اهـ "الْصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

وَيَسْـــــتَحِيلُ اِعْتِقَـــادُ فِـــيهِمِ خِيَـانَةً كَـذِبْ وَكَتْمُ احْصِـيهِمِ

ويســتحيل ضــد هــذه الصــفات الأربــع: الأمانــة المســتحيل (الْخِيَـانَة)، الصدق مستحيل (الْكَـــذِب)، الفطانة المستحيل البلادة، التبليغ المستحيل (الْكِتْمَان).

الْجَائِزُ فِي حَقِّهِمْ عَلَيْهِمُ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ

وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ كَالأَكْلِ   وَالشُّرْبِ وَالجِمَاعِ مَوْتٍ امْلِ

وقوله (وَجَائِزٌ فِي حَقِّهِمْ كَالأَكْلِ): أي من الأعراض البشريَّة التي لا تؤدِّي إلى نقص في مراتبهم العليَّة كالنَّوم ونحوه، ولكن أكلهم ونومهم لا عن شهوة بل للتَّقوِّي. (وَالشُّرْب) للماء لأنهم بشرٌ يحتاجون لما يحتاج إليه البشر، (وَالجِمَاع) أي بالملك مطلقًا، مسلمات أو كتابيات لا مجوس، أو بالنِّكاح في المسلمات الحرائر. اهـ "الْصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

وقول العلماء (التي لا تؤدي إلى نقص في مراتبهم العليَّة): خرجت الأعراض المنفرة كالجُنون والجُذام والبرص والعمى والفقر وسوء الخلق وخسة الأصل، فإنها محالٌ في حقِّهم، ولم يثبت أن شُعيب كان ضريرًا، وما كان بيعقوب فهو حجاب على العين من تواصل الدموع، فلذلك لما جاءه البشير ارتدَّ بصيرًا لانقطاع دموع العين، وما كان من أيوب من البلاء، وإن كان عظيمًا فالحقُّ أنه بين الجلد والعظم، فلم يكن مُنَفِّرًا، وما اشتهر في القصة من الحكايات المنفرة فهي باطلةٌ اهـ "الْصَّاوِيّ".

وأما السَّهْو فممتنع عليهم فيما أبلغوا عنه من الأخبار، مثل عذاب القبر ونعيمه وغيرها كقيام الرُبط، فإن قلت قد اعترف صَلَّى

اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بصواب فعل من يلقح النخل، وقد كان قال لهم: «إِنَّكُمْ لَوْ تَرَكْتُمُوهُ بِلَا تَلْقِيحٍ لَصَلُحَ، فَفَعَلُوا» فشاذٌ.

أُجيبُ: بأن هذه القِصَّة ليست من باب الخبر المعروض للصِّدق والكذب، وإنما هي من باب الرأي والاستشارة في أمر دنيوي لا أمر ديني، فلذلك أمرهم بالرجوع لعادتهم، وأما في الأفعال البلاغية وغيرها فيجوز كالسَّهْو في الصَّلاة للتَّشريع.

وأما النَّسيان فممتنع فيما أمروا بتبليغه قبل إبلاغهم الناس سواءً كانت قوليَّة أو فعليَّة.

(تَنْبِيهٌ): قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ﴾ [الأحزاب: ٣٧]. الذي كان يخفيه هو تزويج اللَّه زينب له، فإن اللَّه أخبره بذلك فكان يكتمه رأفة بزيد وبضعفاء المسلمين، خوف افتتانهم بقولهم أنه يتزوج حليلة ابنه، وليس المراد بما يخفيه من حبها خلافًا لمن زعم ذلك فإنه إساءة أدب لا تخفى، كما تلقيناه عن أشياخنا المُحقِّقين، وقد بسطنا الكلام على ذلك في "شرحنا على الهمزية" في مبحث التَّوسُّل بالأزواج اهـ "الصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

قوله (مَــوْتٍ امْـلِ): لأن اللَّه سبحانه وتعالى حكم على كل نفس بالموت، وإن كانوا هم أحياء في قبورهم صَلَوَاتُ اللهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِمْ، وقد تقدَّم لك ما يجب في حقِّه سبحانه وتعالى وحق أنبيائه عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

السَّمْعِيَّات

وَيَجِـــبُ الإِيمَـــانُ بِالجِنَـــانِ   وَالحَـوْضِ وَالحِـسَابِ وَالنِّيرَانِ

ثم شرع المُصنِّف رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في السمعيات أي المسموعات، التي أخبرنا الشارع بوجودها وآمنا بها.

منها الجِنَان جمع جَنَّة، وهي لغة: البُستان، والمراد منها دار الثَّواب، وهي سبع: أعلاها وأفضلها الفردوس، وفوقها عرش الرحمن، ومنها تتفجر أنهار الجنة، فجنة المأوى، فجنة الخلد، فجنة النَّعيم، فجنة عدن، فدار السلام، فدار الجلال، هذا ما ذهب إليه ابن عبَّاس وجماعته،

وذهب الجمهور إلى أنها أربع، بدليل ما في سورة الرحمن. وقيل: الجنة واحدة، وما تقدَّم أسماء لمسمى واحد، وكل اسم صالح لها. والجنة والنَّار موجودتان الآن، والجنة هي التي أُهبط منها سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ، خلافًا للمعتزلة الذاهبين إلى أنهما سيوجدان في الآخرة، وأن سيدنا آدم أُهبط من بستان على ربوة من الأرض.

(وَالحَوْضِ) أي حوض رسول اللَّه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، ووردت فيه أحاديث كثيرة بلغت مبلغ التواتر. وَفِي "الصَّحِيحَيْنِ": قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «حَوْضِي مَسِيرَةُ شَهْرٍ، وَزَوَايَاهُ سَوَاءٌ، وَمَاؤُهُ

أَبْيَضُ مِنَ اللَّبَنِ، وَرِيحُهُ أَطْيَبُ مِنَ الْمِسْكِ، وَكِيزَانُهُ كَنُجُومِ السَّمَاءِ، فَمَنْ شَرِبَ مِنْهُ فَلَا يَظْمَأُ بَعْدَهُ أَبَدًا».

والصَّحِيحُ أن لكُلِّ نبي حوض، فليس من خصوصيات نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأنه يكون قبل الميزان، وهل هو حوضًا واحدًا أو حوضان، والثاني بعد الصراط قولان، وقيل الذي بعد الصِّراط هو الكوثر، وهو نهر في الجنة لا حوض.

وإنما الحوض قبل الصَّراط وهو: جسمٌ مخصوصٌ يصب فيه ميزابان من ماء الكوثر، ترده أمته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، من شرب منه شربة لا يظمأ بعدها أبدًا، وإنما يكون الشُّرب في الجنة على سبيل التَّلذذ لا العطش.

ويُطرد من بدَّل وغيَّرَ إما بالارتداد وإما أن يحدث في الدِّين ما ليس منه، كأهل البدع على اختلاف أنواعهم، وكأهل الكبائر المعلّقين بها، وكالظلمة الجائرين في حكمهم، لأن المرتد مخلد في النَّار، وخالف المعتزلة في ذلك، وهم أحق للطرد منه عن غيرهم. اهـ "الدَّرْدِير عَلَى الْخَرِيدَةِ".

(وَالْحِسَاب) وهو لغة العدّ، واصطلاحًا: توقيف اللَّه عباده في المحشر على أعمالهم فعلاً أو قولاً أو اعتقادًا تفصيلاً، بأن يكلمهم اللَّه تعالى بكلام قديم ليس بحرف ولا صوت، بأن يزيل عنهم

الحجاب حتى يسمعوه، وقد يكون من الملائكة فقط، وقد يكون منه تعالى ومن الملائكة جميعًا. وكيفيته مختلفة فمنه اليسير ومنه العسير والسِّر والجهر والفضل والعدل على حسب الأعمال، فيغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء.

ويكون للمؤمنين والكافرين إنسًا وجِنًّا بعد أخذهم الكتب، لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا وَيَنْقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُورًا﴾ [الانشقاق: ٧-٩]. وأيسر الحساب محاسبة الله فقط، حتى لا يعلم بذلك إنس ولا جن ولا ملك، يقول له تعالى: هذه سيئاتك قد غفرتها لك، وهذه حسناتك قد ضاعفتها لك.

ولا يكون للمعصومين، ويستثنى ممن يحاسب سبعون ألفًا أفضلهم أبوبكر الصديق رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، فإنهم يدخلون الجنة بغير حساب، كما ورد بذلك الحديث، وهذه الأمة وإن كانت آخر الأمم إلا أنها تقدم في الآخرة في الحساب وغيره. اهـ "الدَّرْدِير عَلَى الْخَرِيدَةِ".

قوله (وَالنِّيرَان): والنَّار حقٌّ أي ثابتة، المراد بالنَّار: دار العذاب بجميع طباقها السبع، أرضها من رصاص وسقفها من نحاس وحيطانها من كبريت وقودها الناس والحجارة.

أعلاها جهنم وهي لعصاة المؤمنين، وتصير خرابًا لخروجهم منها، وتحتها لظى وهي لليهود قال تعالى: ﴿كَلَّا إِنَّهَا لَظَى نَزَّاعَةً لِلشَّوَى ﴾ [المعارج: ١٥-١٦]، ثم الحطمة قال تعالى: ﴿وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْحُطَمَةُ نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ﴾ [الهمزة: ٥-٦]، وهي للنَّصارى، ثم السَّعير قال تعالى: ﴿فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [الملك: ١١]، وهي للصَّابئين فرقة من اليهود ازدادوا ضلالاً بعبادتهم العجل، ثم سقر قال تعالى: ﴿سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر: ٢٦]، ثم الجحيم وهي لعبدة الأصنام قال تعالى: ﴿خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ثُمَّ الْجَحِيمَ صَلُّوهُ﴾ [الحاقة: ٣٠-٣١] ، ثم الهاوية وهي للمنافقين وكل من اشتدَّ كفره كفرعون وهامان وقارون.

وقد نظمها شيخنا الشيخ الأمير بقوله:

جهنم للعاصي لظى ليهودها　　وحطمة دار للنَّصارى أولي الصمم
سعير عذاب الصابئين ودارهم　　مجوس لها سقر جحيم لذي صنم
وهاوية دار النَّفاق وقيتها　　وأسأل رب العرش أمنا من النغم

هكذا ذكر الأشياخ تبعًا لبعض الأحاديث في النَّار، ولكن آيات القرآن شاهدة بأن كل اسم من تلك الأسماء يطلق على ما يعم الجميع، لأنه يذكر صفات النَّار بأي وجه، ويعبر عن وعيدهم بأي اسم من هذه الأسماء فتدَّبر.

وذكر سَيّدِي ابْن عَرَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أن نار الدُّنيا من جهنم طفئت في البحر مرتين، ولولا ذلك لم ينتفع بها، وبعد أخذ نار الدُّنيا منها أوقد عليها ألف سنة حتى ابيَّضت، ثم ألف سنة حتى احمرَّت، ثم ألف سنة حتى اسوَّدت، فهي سوداء مظلمة عافانا اللَّه منها آمين. اهـ "الْصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

كَذَا الثَّوَابُ وَالعِقَابُ وَالنَّشْرُ   مِيزَانُنَا الصِّرَاطُ بَعْدَ الحَشْرُ

قوله (كَـذَا الثَـوَابُ): أي يجب على الإنسان أن يؤمن بأن اللَّه سبحانه وتعالى يثيبه على الطاعات فضلاً منه.

وقوله (وَالعِقَـابُ): كذلك يجب على الإنسان أن يؤمن بأن اللَّه سبحانه وتعالى يعاقب الكافر بالدخول في النَّار ثم الخلود فيها، وأما المؤمن العاصي يدخله اللَّه النَّار أو يعف عنه والعفو أقرب. لكن قال بعض العلماء: لا بد من دخول بعض العصاة النَّار لتنفيذ الوعيد الوارد في ذلك.

وعلى كل حال دخول الجنة جعلنا اللَّه من أهلها آمين بالفضل، ودخول النَّار بالعدل، كما قال صاحب الجوهرة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ:

فـإن يثبنـا فـبمحض الفضـل   وإن يعـذب فـبمحض العـدل

قوله (وَالنَّشْـرُ): وهو البعث. والمراد به: إحياء اللَّه تعالى الموتى من قبورهم بعد جمع أجزائهم الأصلية، بأن يجمعها اللَّه تعالى بعد تفرقها. وقيل: بعد عدمها بالكليَّة ما عدا عجب الذنب فإنه لا يعدم. وقيل: هو الإخراج من القُبور بعد الإحياء بردِّ الروح فيه.

قوله (مِيزَانُنَـا): وهو قبل الصِّراط توزن به أعمال العباد، ودَلَّ عليه الكتاب في آيات متعددة والسُّنَّة حتى بلغت أحاديثه مبلغ التَّواتر، والحمل على الحقيقة ممكن، فيجب الإيمان به، وإن كنا لا

نعرف حقيقة جوهره، والتَّأويل بتمام العدل كما ذهب إليه المعتزلة عنادًا ومكابرة.

والصحيح أنه ميزان واحد لجميع الأمم ولجميع الأعمال، والجمع فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ﴾ [الأنبياء: ٤٧]، للتعظيم، وإن خفَّت الموزون وثقله على صورته في الدُّنيا، وإن الكفَّار توزن أعمالهم كالمؤمنين بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ﴾ [الأعراف: ٩]، وقوله تعالى: ﴿وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾ [القارعة: ٨-٩] ، وقوله تعالى: ﴿فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا ﴾ [الكهف: ١٠٥] ، أي نافعًا.

ولا يكون للأنبياء ولا للملائكة، ولا لمن يدخل بغير حساب، لأنه فرع عن الحساب، ولا حساب على من ذكر.

وهو على صورة ميزان الدُّنيا، وله كفتان ولسان، وتوزن الأعمال بأن تصور الأعمال الصالحة في صورة حسنة نورانيَّة، فتوضع في كفة النُّور وهي المعدة للحسنات، وهي على يمين العرش مقابلة للجنة، وتصور الأعمال السيئة بصوره قبيحة ظلمانية، توضع في كفة الظلمة المعدة للسيئات، وهي عن شمال العرش تجاه النار.

وقيل: توزن الصحف المكتوبة فيها الأعمال بناءًا على أن الحسنات متميزة عن السيئات بكتاب ويشهد له حديث، وهناك صنج

مثاقيل الذَّرّ يعلم بها كمية التَّفاوت تحقيقًا لتمام العدل: ﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾ [الزلزلة: ٧-٨].

قوله (الصِّرَاطُ): وهو لغة: الطَّرِيقُ الْوَاضِحُ، وشرعًا: جسرٌ ممدودٌ على طول جهنم بين الموقف والجنة، لأن جهنم بينهما، يرده المؤمنون والكفَّار للمرور عليه إلى الجنة، وهو أدقُّ من الشعرة وأحدُّ من السَّيف.

وأنكر القرافي تبعًا لشيخه العز كونه أدقّ من الشعرة وأحدّ من السَّيف، بل هو متسعٌ لما ورد ما يدل على ذلك، والأظهر أنه مختلف في الضيق والاتساع باختلاف الأعمال. وقيل: إن الكفَّار لا يمرون عليه بل يؤمرون إلى النَّار من أول الأمر. وقيل: بعضهم يمر وبعضهم لا.

والمارُّون عليه مختلفون: فمنهم سالمٌ بعمله ناجٍ من الوقوع في نار جهنم، وهم على أقسام: فمنهم من يجوزه كلمحة البصر، ومنهم من يجوزه كالبرق الخاطف، ومنهم كالريح العاصف، ومنهم كالطير، ومنهم كالجواد السابق، ومنهم من يسعى سعيًا، ومنهم من يمشي، ومنهم من يمر عليه حبوًا، على قدر تفاوتهم في الأعمال الصالحة والإعراض عن المعاصي، فكل من كان أسرع إعراضًا عنها إذا مرت في خاطره كان أسرع مرورًا، ومنهم من تخدشه كلاليبه فيسقط، ولكن

يتعلق بها فيعتدل ويمر، ويجاوزه بعد أعوام، ومنهم غير السالم بل يسقط في نار جهنم، وهم متفاوتون أيضًا بقدر الجرائم، ثم منهم من يخلد في النار كالكفار، ومنهم من يخرج منها بعد مدة على حسب ما شاء اللَّه تعالى، وهم عصاة المؤمنين بشفاعة النبي صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أو غيره.

وهو من الممكنات التي أخبر بها الصادق المصدوق، وكل ما كان كذلك فيجب الإيمان به كما قال تعالى: ﴿فَاسْتَبَقُوا الصِّرَاطَ﴾ [يس: ٦٦]. وفي الحديث: «يُضْرَبُ الصِّرَاطُ بَيْنَ ظَهْرَانَيْ جَهَنَّمَ، فَأَكُونُ وَأُمَّتِي أَوَّلَ مَنْ يَجُوزُ» وغير ذلك. قَالَ ابْنُ الْفَاكْهَانِيّ: هو موجود والأخبار عنه صحيحة اهـ.

فذهب أهل السُّنَّة إلى إبقائها على ظاهرها مع تفويض حقيقتها إلى اللَّه تعالى خلافًا للمعتزلة، وقال بعضهم: أنه سيوجد عند الحاجة إليه اهـ "الدَّرْدِيرُ عَلَى الْخَرِيدَةِ".

قوله (الْحَشْر): وهو عبارة عن سوقهم جميعًا إلى الموقف، وهو الموضع الذي يقفون فيه من أرض القدس المبدلة التي لم يعص اللَّه عليها، لفصل القضاء بينهم، ولا فرق في ذلك بين من يجازى وهم الإنس والجن، وبين من لا يجازى كالبهائم والوحوش على ما ذهب إليه المحققون، وصحَّحه النَّوَوِيُّ.

وهذا في الكامل، وأما السقط الذي لم يتم له ستة أشهر، فإن سقط بعد نفخ الرُّوح فيه أعيد بروحه ويصير عند دخول الجنة كاملاً في الجمال والطُّول، وإن سقط قبل نفخ الرُّوح فيه كان كسائر الأجسام التي لا روح فيها كالحجر، فيحشر ثم يصير ترابًا.

وأوَّل من تنشق عنه الأرض نبينا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فهو أوَّل من يبعث، وأول وارد في المحشر، كما أنه أول داخل الجنة، وبعده سيدنا نوح عَلَيْهِ وَعَلَى نَبِيِّنَا أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامُ كما ورد، ولكن ورد أن الداخل بعده صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أبو بكر، وحمل على أنه بعد الأنبياء.

وَالْحُـورُ وَالْجِـنُّ كَـذَا الوِلْـدَانُ وَالأَنْبِيَـاء الأَمْـلَاكُ وَالتِّبْيَـانُ

قوله (وَالْحُـورُ) يجب الإيمان بِهِنَّ: نساءٌ خلقهن الله في الجنة، الواحدة تلبس سبعين حُلَّة، ونور ساقيها يضيء منها، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَحُورٌ عِينٌ كَأَمْثَالِ اللُّؤْلُؤِ الْمَكْنُونِ﴾ [الواقعة: ٢٢-٢٣].

وعلم عدد ما للشخص إنسيًا كان أو جنيًا –إذ الجان ينكحون من الحور العين كالإنس– مفوضٌ إليه تعالى، نعم ورد في حديث أَبِي نُعَيْمٍ أَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «يُزَوَّجُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ أَرْبَعَةُ آلَافِ بِكْرٍ، وَثَمَانِيَةُ آلَافِ أَيِّمٍ، وَمِائَةُ حَوْرَاءَ، فَيَجْتَمِعْنَ فِي كُلِّ سَبْعَةِ أَيَّامٍ، فَيَقُلْنَ بِأَصْوَاتٍ حِسَانٍ لَمْ تَسْمَعِ الْخَلَائِقُ بِمِثْلِهَا: نَحْنُ الْخَالِدَاتُ فَلَا نَبِيدُ، وَنَحْنُ النَّاعِمَاتُ فَلَا نَبْيَسُ، وَنَحْنُ الرَّاضِيَاتِ فَلَا نَسْخَطُ، وَنَحْنُ الْمُقِيمَاتُ فَلَا نَظْعَنُ، طُوبَى لِمَنْ كَانَ لَنَا وَكُنَّا لَهُ».

قوله (وَالْجِنُّ): يجب الإيمان به، وهم: أجسامٌ لطيفةٌ ناريَّةٌ، ولهم القدرة على التَّشكلات القبيحة، وهم مكلَّفون من الخلقة، وأوَّل من كلّف منهم إبليس لعنه الله، وهو مكلَّف بإسماع الكلام القديم كما تقدَّم، وبقية الجن مكلَّفون من الخلقة، أي يولدون بالغين.

قيل لبعض العلماء المصريين: من كانت زوجة إبليس؟، قال: هذا عقد لم أحضر مراسمه. اهـ من "شرح الشيخ صالح" مع بعض الزيادات.

قوله (الوِلْـدَانُ): يجب الإيمان بهم، خلقهم الله على صورة غلمان الدُّنيا، وهم خَدَمة أهل الجنة، جمالهم شديد، وفي رؤيتهم فرح وسرور، لا يخطر بأحد فيهم فاحشة، إذ هي مبغوضة لله تعالى، وهي أي الفاحشة لا تخطر بقلب أهل الجنة.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ وِلْدَانٌ مُخَلَّدُونَ﴾ [الإنسان: ١٩]، أي لا يموتون ولا يهرمون ولا ينتقلون من حالة إلى حالة، كما أن رجال أهل الجنة في عمر ثلاثة وثلاثين سنة، والنِّساء في عمر ستة عشر سنة، ونساء الدُّنيا أجمل من الحور العين، وإذا تزوجت المرأة في الدُّنيا أكثر من رجل تخيّر فيمن تريد، وقيل: هي للأوَّل.

وقوله (وَالأَنْبِيَاء): وهي جمع نبي، وهم: نوعٌ من البشر اختارهم الله وأصطفاهم لتبليغ الأحكام عنه، وميَّزهم بصفات لا توجد في غيرهم. أما الرُّسُل عددهم ثلاثمائة وثلاثة عشر أو أربعة عشر أو خمسة عشر. والأنبياء قيل هم: مائة وأربعة وعشرون ألفًا، والحقُّ لا يعلم عددهم إلا الله سبحانه وتعالى.

لكن يجب معرفة خمسة وعشرين منهم بالاسم، وهم: سيدنا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأبونا آدم، وسيدنا نوح، وسيدنا إدريس، وسيدنا إبراهيم، وسيدنا إسماعيل، وسيدنا إسحاق، وسيدنا يعقوب، وسيدنا يوسف، وسيدنا لوط، وسيدنا شعيب، وسيدنا صالح، وسيدنا داؤود، وسيدنا موسى، وسيدنا هارون، وسيدنا يونس، وسيدنا أيوب، وسيدنا ذي الكفل، وسيدنا إلياس، وسيدنا اليسع، وسيدنا زكريا، وسيدنا يحيى، وسيدنا سليمان، وسيدنا هود، وسيدنا عيسى، عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

ويجب اعتقاد أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ أفضلهم، وأنه آخرهم، ويليه في الفضل أولو العزم من الرُّسُل، فبقية الرُّسُل والأنبياء، فرؤساء الملائكة، فبقية الملائكة من غير تعيين، إذ لا تعلم الحقيقة، فأصحاب النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأفضلهم أبوبكر، فعمر، فعثمان، فعلي، فبقية السِّتة المبشرين بالجنة، فبقية البدريين، فأهل بيعة الرضوان، فبقية الصَّحابة، فالتَّابعين، فتابع التَّابعين. ويجب الإمساك عمَّا وقع بين الصحابة من النِّزاع، كَمَا قَالَ صَاحِبُ الْجَوْهَرَةِ:

وَأَوِّلْ التَّشَاجُر الَّذِي وَرَدَ   إِنْ خُضْتَ فِيهِ وَاجْتَنِبْ دَاء الْحَسَد

اهـ "الدَّرْدِير".

وقوله (الأَمْـلَاكُ): أي الملائكة يجب الإيمان بهم وبعصمتهم أيضًا قَالَ تَعَالَى: ﴿فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا﴾ [فاطر: ١]، وهذا دليل على وجود الملائكة. وَقَوْلهُ تَعَالَى: ﴿لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ﴾ [التحريم: ٦].

وهم أي الملائكة: أجسامٌ نورانيَّةٌ لا يتصفون بالذُّكُورة ولا بالأُنُوثة ولا بالخُنُوثة، ولا يلد بعضهم بعضًا، ولا يأكلون ولا يشربون ولا ينامون، ولا يعصون الله ما أمرهم، ويفعلون ما يؤمرون.

ويجب معرفة عشرة منهم بالاسم، وهم: سيدنا جبريل، وسيدنا إسرافيل، وسيدنا عزرائيل، وسيدنا ميكائيل، وسيدنا مُنْكَر ونَكِير، وسيدنا رضوان، وسيدنا مالك، وسيدنا رقيب، وسيدنا عتيد.

والأربعة الأَوَّل هم رؤساء الملائكة، ولكل واحد وظيفة مؤديها، والجائز في حقهم هو الموت فقط.

ومن الكلام المؤدي للكفر كقول الإنسان لأخيه: أَنْتَ ذَيْ نكير. للإنسان الصعب في التعامل، أو يقول له: أَنْتَ ذَيْ مَالِك النَّار. أو يصف الملائكة بوصف لا يليق بهم.

والملائكة عَلَيْهِمْ السَّلَامُ لهم القدرة على التَّشكلات المختلفة والجميلة لا القبيحة، وهم لا تحكم بهم الصُّورة وكذلك البشر، أما

الجن فتحكم بهم الصُّورة، والمعنى أن الجن إذا خرج من صورته إلى صورة أخرى وقتلت تلك الصُّورة، فهو هناك يموت من فوره.

وقوله (وَالْتِّبْيَانُ): أي القرآن.

يجب أن تؤمن بالكتب السَّماوية أنها من عند الله تعالى وهي أربعة: التَّوراة، والإنجيل، والزَّبور، والقرآن وهو أفضلها، ويجب الإيمان بها تفصيلاً.

وأما كتب إبراهيم وموسى وبقية الكُتب يجب الإيمان بها إجمالاً، ومما يجب على الإنسان أن يؤمن به أن القرآن معجزٌ، كما أنه منهج، أما الكُتب السَّابقة فهي مناهج وليست معجزات، ولذا طلب الله سبحانه وتعالى من أهلها أن يحفظوها، وهو أمرٌ تكليفي، قد يطبق أو لا، ولم يطبق بالفعل، وأما القرآن فالمولى سبحانه وتعالى التزم بحفظه كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ [الحجر: ٩]. كَمَا قَالَ صَاحِبُ "الْجَوْهَرَةِ":

إِذْ مُعْجِزَاتُهُ كَثِيرَةٌ غُرَرٌ مِنْهَا كَلَامُ اللَّهِ مُعْجِزُ الْبَشَرِ

ومن أبلغ ما في القرآن من سورة المسد، قَالَ تَعَالَى: ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ [المسد: ١]، فلو أتى أبو لهب إلى النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وقال له: أنا أسلمت، ولو نفاقًا، لكان يبطل الرِّسالة، لكنه لا يستطيع، ويظهر لك الإعجاز في ذلك، هكذا قال العلماء.

الْأَوْلِيَاءُ

وَالأَوْلِيَـــاء وَكُـــلُّ مَـــا أَوْرَدَهْ   نَبِيُّنَـــا مِـــنْ حُكْمِـــهِ أَوْجَبَـــهْ

قوله (وَالأَوْلِيَـــاء) جمع وليّ وهو: القائمُ بحقوق اللَّه تعالى وحقوق العباد حسب الإمكان، وهو معنى قول من قال: هو العارفُ باللَّه تعالى وصفاته حسب الإمكان، المواظب على الطاعات، المجتنب للمخالفات، المعرض عن الانهماك في اللَّذات والشَّهوات.

ويجب اعتقاد كراماتهم، والكرامةُ هي: أمرٌ خارقٌ للعادة يظهر على يدِ عبدٍ ظاهر الصَّلاح غير مقرون بدعوة النُّبُوة، كل ذلك ورد به الكتاب والسُّنَّة، وأجمعت عليه الأمة قبل ظهور المخالفين، وكل ما كان كذلك فالإيمان به واجب.

قوله (وَكُلُّ مَا أَوْرَدَه): أي قَالَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ونُقِلَ عَنْهُ، وصار ضروري كالصَّلاة والزَّكاة والصَّوم والحج، ومن السَّمعيات التي ذكرت من قبل كالحساب والميزان والصِّراط وهكذا، وحرمة الزِّنا، والخمر، والرِّبا، وحِل النِّكاح، والبيع، ونحو ذلك.

والمعراج بجسده الشَّريف صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يقظة، وهو المعراج إلى السَّماء مع سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ بلا بُراق بعد الإسراء ليلاً.

وكسُؤال الملكين منكر ونكير بالإتيان للميت مؤمنًا كان أو كافرًا أو منافقًا بعد تمام الدَّفن في القبر، الذي يستقر فيه دائمًا وعند انصراف النَّاس، فيقعدانه ويعيد الله فيه الرُّوح بتمامه، وقيل بنصفه، ويسألانه مَنْ رَبُّكَ؟، وَمَا دِينُكَ؟، وما تقول في الرَّجل الذي بعث فيكم؟، فيقول المؤمن: ربي الله، وديني الإسلام، والرَّجل المبعوث فينا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فيقولان له: انظر مقعدك من النَّار، قد أبدلك الله به مقعدًا في الجنة فيراهما جميعًا. والمنافق أو الكافر يقول: لا أدري، فيقولان له: لا دَرَيْتَ وَلا تَلَيْتَ، ويضرب بمطرق من حديد في يد أحدهما، فيصيح صيحة يسمعها من يليه غير الثَّقلَيْن، ويترفقان بالمؤمن، وينهران الكافر والمنافق، ويسألان كل واحد بلسانه على الصَّحيح. ولو تمزَّقت أعضاؤه أو أكلته السِّباع أو حرق وسحق وزرئ في الهواء.

ولا يُسأل: الأنبياء، ولا الملائكة، ولا الصِّدِّيقون، والمرابطون، والشُّهداء، ومُلازم قراءة سورة تبارك كل ليلة، ومن قرأ في مرض موته الإخلاص ثلاثًا، والمبطون، ومن مات في أيام الطاعون ولو لم يطعن، والمجنون، والأبله. وَجَزَمَ الْجَلَالُ السُّيُوطِيُّ بعدم سؤال الأطفال. ويسألان الجن بتكليفهم، وهذا السُّؤال هو فتنة القبر، أعاذنا الله منها آمين.

وأوَّل من يأخذ كتابه على الإطلاق سيدنا عمر بن الخطاب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وله شعاع كشعاع الشَّمس، وأما سيدنا أبو بكر رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فهو رئيس السَّبعين ألف الذين يدخلون الجنة بغير حساب، وبعد سيدنا عمر أبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد المخزومي رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، وأول من يأخذه بشماله أخوه الأسود بن عبد الأسد المخزومي.

وكالشَّفاعة وهي أنواعٌ:

الأُولى: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في فصل القضاء لإراحة الخلق، من طول الوُقوف ومشقته، وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

الثَّانية: شفاعته صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ في إدخال قوم الجنة بغير حساب. قال الإمامُ النَّوَوِيُّ: وَهِيَ مُخْتَصَّةٌ بِهِ.

الثَّالثة: الشَّفاعة فيمن استحق دخول النَّار ألا يدخلها، قَالَ الْقَاضِي عَيَاض: ليست مُخْتَصَّة بِهِ. وتردد النَّوَوِيُّ أي لأنه لم يرد تصريح بذلك.

الرَّابعة: الشَّفاعة في إخراج قوم من النَّار، ويشاركه فيها الأنبياء والملائكة وصالحو المؤمنين.

الخامسة: الشَّفاعة في زيادة الدَّرجات. وجوَّز النَّوَوِيُّ اختصاصه بها عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

السَّادسة: الشَّفاعة في تخفيف العذاب عمن استحق الخُلُود في النَّار، كما في حقِّ أبي طالب. ففي "الصَّحِيحِ": «أَنَا أَوَّلُ شَافِعٍ وَأَوَّلُ مُشَفَّعٍ». «وَأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذُكِرَ عِنْدَهُ عَمُّهُ أَبُو طَالِبٍ، فَقَالَ: لَعَلَّهُ تَنْفَعُهُ شَفَاعَتِي».

وكشرائط السَّاعة الخمسة:

المُتفق عليها أي علاماتها، أي العلامات الدَّالة على قربها:

أولها: خُروج المسيح الدجال: -بالحاء المهملة- على الصَّحيح وسمي مسيحًا لمسحه الأرض في أمد يسير، أي مدة أربعين يومًا، كما سيأتي في الحديث، وقيل لأنه ممسوح العين اليسرى، ووصف بالدَّجال أي الكذَّاب للفرق بينه وبين المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ السَّلَامُ، وسمي عيسى مسيحًا لمسحه الأرض أي لسياحته فيها. وقيل: ما مسح على ذي عاهة إلا برئ بإذن اللّٰه تعالى. وقيل: لأنه ممسوح بالبركة.

ثانيها: نُزُول المسيح عيسى بن مريم عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ من السَّماء وقتله الدَّجال. فَفِي "الصَّحِيحِ": «لَيَنْزِلَنَّ ابْنُ مَرْيَمَ حَكَمًا عَدْلًا، فَلَيَكْسِرَنَّ الصَّلِيبَ، وَلَيَقْتُلَنَّ الْخِنْزِيرَ، وَلَيَضَعَنَّ الْجِزْيَةَ». وَفِي

"مُسْنَدِ الإِمَامِ أَحْمَد"، مِنْ حَدِيثِ جَابِرٍ: «يَخْرُجُ الدَّجَّالُ فِي خَفْقَةٍ مِنَ الدِّينِ، وَإِدْبَارٍ مِنَ الْعِلْمِ، فَلَهُ أَرْبَعُونَ لَيْلَةً يَسِيحُهَا فِي الْأَرْضِ، الْيَوْمُ مِنْهَا كَالسَّنَةِ، وَالْيَوْمُ مِنْهَا كَالشَّهْرِ، وَالْيَوْمُ مِنْهَا كَالْجُمُعَةِ، ثُمَّ سَائِرُ أَيَّامِهِ كَأَيَّامِكُمْ هَذِهِ، وَلَهُ حِمَارٌ يَرْكَبُهُ عَرْضُ مَا بَيْنَ أُذُنَيْهِ أَرْبَعُونَ ذِرَاعًا، فَيَقُولُ لِلنَّاسِ: أَنَا رَبُّكُمْ وَهُوَ أَعْوَرُ، وَإِنَّ رَبَّكُمْ لَيْسَ بِأَعْوَرَ، مَكْتُوبٌ بَيْنَ عَيْنَيْهِ كَافِرٌ- ك ف ر مُهَجَّاةٌ- يَقْرَؤُهُ كُلُّ مُؤْمِنٍ كَاتِبٌ، وَغَيْرُ كَاتِبٍ، يَرِدُ كُلَّ مَاءٍ وَمَنْهَلٍ إِلَّا الْمَدِينَةَ وَمَكَّةَ، حَرَّمَهُمَا اللَّهُ عَلَيْهِ، وَقَامَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَبْوَابِهَا، وَمَعَهُ جِبَالٌ مِنْ خُبْزٍ، وَالنَّاسُ فِي جَهْدٍ إِلَّا مَنْ تَبِعَهُ، وَمَعَهُ نَهْرَانِ أَنَا أَعْلَمُ بِهِمَا مِنْهُ، نَهَرٌ يَقُولُ الْجَنَّةُ، وَنَهَرٌ يَقُولُ النَّارُ، فَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ الْجَنَّةَ، فَهُوَ النَّارُ، وَمَنْ أُدْخِلَ الَّذِي يُسَمِّيهِ النَّارَ، فَهُوَ الْجَنَّةُ، قَالَ: وَيَبْعَثُ اللَّهُ مَعَهُ شَيَاطِينَ تُكَلِّمُ النَّاسَ، وَمَعَهُ فِتْنَةٌ عَظِيمَةٌ، يَأْمُرُ السَّمَاءَ فَتُمْطِرُ فِيمَا يَرَى النَّاسُ، وَيَقْتُلُ نَفْسًا ثُمَّ يُحْيِيهَا فِيمَا يَرَى النَّاسُ، لَا يُسَلَّطُ عَلَى غَيْرِهَا مِنَ النَّاسِ، وَيَقُولُ: أَيُّهَا النَّاسُ هَلْ يَفْعَلُ مِثْلَ هَذَا إِلَّا الرَّبُّ، قَالَ: فَيَفِرُّ الْمُسْلِمُونَ إِلَى جَبَلِ الدُّخَانِ بِالشَّامِ فَيَأْتِيهِمْ، فَيُحَاصِرُهُمْ، فَيَشْتَدُّ حِصَارُهُمْ وَيُجْهِدُهُمْ جَهْدًا شَدِيدًا، ثُمَّ يَنْزِلُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ فَيُنَادِي مِنَ السَّحَرِ، فَيَقُولُ: يَا أَيُّهَا النَّاسُ، مَا يَمْنَعُكُمْ أَنْ تَخْرُجُوا إِلَى الْكَذَّابِ الْخَبِيثِ؟، فَيَنْطَلِقُونَ فَإِذَا هُمْ بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، فَتُقَامُ الصَّلَاةُ، فَيُقَالُ لَهُ: تَقَدَّمْ يَا رُوحَ اللَّهِ،

فَيَقُولُ: لِيَتَقَدَّمْ إِمَامُكُمْ فَلْيُصَلِّ بِكُمْ، فَإِذَا صَلَّى صَلَاةَ الصُّبْحِ خَرَجُوا إِلَيْهِ، فَحِينَ يَرَى الْكَذَّابُ يَنْمَاعُ كَمَا يَنْمَاعُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ، فَيَقْتُلُهُ حَتَّى إِنَّ الشَّجَرَةَ وَالْحَجَرَ يُنَادِي: يَا رُوحَ اللَّهِ، هَذَا يَهُودِيٌّ، فَلَا يَتْرُكُ مِمَّنْ كَانَ يَتْبَعُهُ أَحَدًا إِلَّا قَتَلَهُ». وَفِي "الصَّحِيحِ" أَحَادِيث بِمَعْنَى ذَلِكَ اهـ ذَكَرَهُ "السُّيُوطِيُّ".

ثالثًا: خُروج يأجوج ومأجوج -بالهمز ودونه- وهما: قبيلتان من ولد يافث بن سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ، فهما من ذرية سيدنا آدم عَلَيْهِ السَّلَامُ من غير خلاف.

(فَائِدَةٌ): اعلم أن أولاد سيدنا نوح عَلَيْهِ السَّلَامُ ثلاثة: سام، وحام، ويافث، فسام أبو العجم والعرب والروم، وحام أبو الحبشة والزنج والنوبة، ويافث أبو الترك والبربر وصقلية. ويأجوج ومأجوج كلهم كفار دعاهم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إلى الإيمان ليلة الإسراء فلم يجيبوا اهـ "الصَّاوِيّ".

وَرَوَى مُسْلِمٌ مِنْ حَدِيثِ النَّوَّاسِ بْنِ سَمْعَانَ: «إِنَّ اللَّهَ يُوحِي إِلَى عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ: إِنِّي قَدْ أَخْرَجْتُ عِبَادًا لِي، لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ بِقِتَالِهِمْ، فَحَرِّزْ عِبَادِي إِلَى الطُّورِ. وَيَبْعَثُ اللَّهُ يَأْجُوجَ وَمَأْجُوجَ، وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنْسِلُونَ، فَيَمُرُّ أَوَائِلُهُمْ عَلَى بُحَيْرَةِ طَبَرِيَّةَ فَيَشْرَبُونَ مَاءَهَا، -وهي بالشام طولها عشرة أميال-، وَيَمُرُّ آخِرُهُمْ فَيَقُولُونَ:

لَقَدْ كَانَ بِهَذِهِ مَرَّةً مَاءٌ. وَيُحْصَرُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ، حَتَّى يَكُونَ رَأْسُ الثَّوْرِ لِأَحَدِهِمْ خَيْرًا مِنْ مِائَةِ دِينَارٍ لِأَحَدِكُمْ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، فَيُرْسِلُ اللَّهُ عَلَيْهِمُ النَّغَفَ فِي رِقَابِهِمْ، فَيُصْبِحُونَ فَرْسَى كَمَوْتِ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ، ثُمَّ يَهْبِطُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى الْأَرْضِ، فَلَا يَجِدُونَ فِي الْأَرْضِ مَوْضِعَ شِبْرٍ إِلَّا مَلَأَهُ زَهَمُهُمْ وَنَتْنُهُمْ، فَتَنْتُنُ الْأَرْضُ، فَيَرْغَبُ نَبِيُّ اللَّهِ عِيسَى وَأَصْحَابُهُ إِلَى اللَّهِ، فَيُرْسِلُ اللَّهُ طَيْرًا كَأَعْنَاقِ الْبُخْتِ فَتَحْمِلُهُمْ فَتَطْرَحُهُمْ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ، ثُمَّ يُرْسِلُ اللَّهُ مَطَرًا لَا يَكُنُّ مِنْهُ بَيْتُ مَدَرٍ وَلَا وَبَرٍ، فَيَغْسِلُ الْأَرْضَ حَتَّى يَتْرُكَهَا كَالزَّلَفَةِ، ثُمَّ يُقَالُ لِلْأَرْضِ: أَنْبِتِي ثَمَرَتَكِ». الْحَدِيث.

وقوله (لَا يَدَانِ لِأَحَدٍ): تثنية يد، ومعناه لا قدرة ولا طاقة. ومعنى (حَرِّزْهُمْ إِلَى الطُّورِ) ضمّهم إليه واجعل لهم حرزًا. وقوله (النَّغَفَ): بتحريك الغين المعجمة: الدُّود الذي يكون في أنوف الإبل والغنم. وقوله (فَرْسَى): كقَتْلى وزنًا، ومعنى واحدة فريس.

وَفِي "الثَّعْلَبِيّ" مِنْ حَدِيثِ حُذَيْفَةَ: «قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ، قَالَ: أُمَمٌ، كُلُّ أُمَّةٍ أَرْبَعُمِئَةِ أَلْفٍ، لَا يَمُوتُ الرَّجُلُ مِنْهُمْ حَتَّى يَرَى أَلْفَ عَيْنٍ تَطْرِفُ بَيْنَ يَدَيْهِ مِنْ صُلْبِهِ، وَهُمْ وَلَدُ آدَمَ، فَيَسِيرُونَ إِلَى خَرَابِ الدُّنْيَا، يَكُونُ مُقَدِّمَتُهُمْ بِالشَّامِ، وَسَاقَتُهُمْ بِالعِرَاقِ، فَيَمُرُّونَ بِأَنْهَارِ الدُّنْيَا، فَيَشْرَبُونَ الفُرَاتَ وَالدِّجْلَةَ وَبُحَيْرَةَ الطَّبَرِيَّةِ، حَتَّى

يَأْتُوا بَيْتَ المَقْدِسِ، فَيَقُولُونَ: قَدْ قَتَلْنَا أَهْلَ الدُّنْيَا، فَقَاتِلُوا مَنْ فِي السَّمَاءِ، فَيَرْمُونَ بِالنِّشَابِ إِلَى السَّمَاءِ، فَتَرْجِعُ نُشَّابُهُمْ مُخْضَبَةً بِالدَّمِ».

وَقَدْ وَرَدَ: إِنَّ الدَّجَّالَ يَقْتُلُهُ عِيسَى بْنُ مَرْيَمَ، فيخرج بعده يأجوج ومأجوج، فيقتلون من اتبع الدجال الذي قتله عيسى، وينحصر عيسى ومن معه في رؤوس الجبال، فيسلط اللَّه عليهم داءً في أعناقهم، فيموتون موت رجل واحد.

اهـ قَالَ الدَّرْدِير: كُلّ ذلك ذكره النَّفْرَاويّ في "الرِّسالة".

رابعها: خُروج الدَّابة التي تكلم النَّاس آخر الزمان، المشار إليها بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الْأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ﴾ [النمل: ٨٢]، أي وإذا قرب وقوع معنى القول عليهم، وهو ما وعدوا به من البعث والعذاب، أخرجنا لهم دابة من الأرض تُكلِّمهم.

قيل: تُكلِّمهم ببطلان الأديان إلا دين الإسلام. وقيل: تقول يا فلان أنت من أهل الجنة، ويا فلان أنت من أهل النَّار. وقيل: تقول ﴿أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لَا يُوقِنُونَ﴾ [النمل: ٨٢].

وَرُوِيَ أَنَّهُ سُئِلَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ عَنْ مَخْرجِهَا، فَقَالَ: «مِنْ أَعْظَمِ الْمَسَاجِدِ حُرْمَةً عَلَى اللَّهِ». يَعْنِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ.

وَرُوِيَ عَنْهُ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «أَنَّ لها ثلاث خَرَجات: خرجة بأقصى اليمن فيفشو ذكرها في البادية، ولا يدخل ذكرها مكة، ثم

تمكث زمنًا طويلاً، وخرجة قريبة من مكة فيفشو ذكرها بالبادية وبمكة، وخرجة بينما عيسى ابن مريم عليه السلام يطوف بالبيت ومعه المسلمون، إذ تهتز الأرض تحتهم وينشق الصَّفا مما يلي المشعر، فتخرج رأس الدَّابة من الصِّفا، تجري الفرس ثلاثة أيام، وما خرج ثلثها، وبعد خروجها يمس رأسها السَّحاب» وتُسمَّى الجَسَّاسَة. وَفِي الْحَدِيثِ: «أَنَّ طُولَهَا سِتُّونَ ذِرَاعًا، وَلَهَا أَرْبَعُ قَوَائِمَ، وَزَغَبٌ وَرِيشٌ وَجَنَاحَانِ، لَا يَفُوتهَا هَارِبٌ وَلَا يُدْرِكهَا طَالِبٌ». وَعَنْ كَعْبٍ: صورتها صورة حمار. وقيل: لها رأس ثور وعين خنزير وأذن إبل.

قال الْصَّاوِيّ: هو حيوانٌ يظهر في المغرب والسودان، أصغر من البعير، كما أخبرني به بعض الثقاة، وعنق نعامة، وصدر أسد، ولون نمر، وخاصرة هر، وذنب كبش، وخف بعير.

خامسها: طُلُوع الشَّمس من مغربها.

واختلف في ذلك هل هو في يوم واحد أو في ثلاثة أيام، ثم تطلع على عادتها من المشرق إلى يوم القيامة، وإذا طلعت في المغرب غربت في المشرق، وعند ذلك يغلق باب التَّوبة على المؤمن العاصي والكافر. وقيل: هو خاص بالكافر لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَوْمَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا﴾ [الأنعام: ١٥٨].

وهل ذلك بالمُكلَّف أم عام؟، وهل يستمر إلى يوم القيامة؟، وهو ظاهر قول البرهان اللَّقَانِيّ في "شَرْحِ جَوْهَرَتِهِ"، الحقّ أن من طلوع الشَّمس من مغربها إلى يوم القيامة لا تقبل توبة أحد، كما في حديث ابن عمر، لكن صحيح الْأُجْهُورِيّ في "حاشيته على الرِّسالة": أن عدم قبولها من المؤمن والكافر خاص، بمن شاهد الطُّلوع وهو مُميز، وأما غير المُميز لصبا أو جنون، ثم حصل له التَّمييز، أو ولد بعد ذلك، فإنه تقبل منه التَّوبة.

وقال في "شرحه على المُختصر": عن ابن عباس: لَا تُقْبَلُ تَوْبَةُ الْكَافِرُ، إِلَّا إِنْ كَانَ صَغِيرًا ثُمَّ أَسْلَمَ بَعْدَ ذَلِكَ فَإِنَّهَا تُقْبَلُ مِنْهُ، وَأَمَّا الْمُؤْمِنُ الْمُذْنِبُ فَتُقْبَلُ مِنْهُ تَوْبَتُهُ.

واعلم أن التَّصديق بما ذُكِرَ هو الإيمان الشَّرعي، لأن الإيمان لغة: هو مطلق التَّصديق. وشرعًا: هو تصديق النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بالقلب في جميع ما علم مجيئه به من الدِّين بالضَّرورة، أي فيما اشتهر بين أهل الإسلام وصار العلم به يشابه العلم الحاصل بالضرورة، بحيث يعلمه العامة من غير افتقار إلى نظر واستدلال، وإن كان في نفسه نظريًا كوحدة الصَّانع جلَّ وعلا، ووجوب الصَّلاة ونحوها، إجمالاً فيما علم إجمالاً وتفصيلاً، فيما علم كذلك.

والمراد من تصديقه عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ الإذعان والقبول لما جاء به، بحيث يقع عليه اسم التَّسليم من غير تكبر وعناد. اهـ انظر "الخريدة" إذا شئت استطراد المسألة.

والرَّاجح أن الإيمان يزيد وينقص بزيادة الأعمال ونقصها، للقطع بأن إيمان الفسَّاق لا يساوي إيمان الصِّدِّيقين والأنبياء والمُرسلين، وَلِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا﴾ [الأنفال: ٢]. وغير ذلك من الآيات.

وَلِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِابْنِ عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، حِينَ سَأَلَهُ: «الْإِيمَانُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ؟، قَالَ: نَعَمْ، يَزِيدُ حَتَّى يُدْخِلَ صَاحِبَهُ الْجَنَّةَ، وَيَنْقُص حَتَّى يُدْخِلَ صَاحِبَهُ النَّارَ».

وبالجُملة فزيادة الأعمال الباطنيَّة والظاهريَّة توجب زيادة إشراقه وضيائه في القلب، وقلتها توجب ضعفه. انظر "الخريدة".

كَلِمَةُ التَّهْلِيلِ

وَكَلِمَةُ التَّهْلِيلِ عَمَّتْ كُلَّ مَا ذَكَرْتُـهُ فَـاذْكُرْ لَهَـا لِتَغْنَمَـا

قوله (وَكَلِمَةُ التَّهْلِيلِ عَمَّتْ كُلَّ مَا ذَكَرْتُـهُ): أي قول: لَا إِلَـهَ إِلَّا اللَّهُ مَعَ مُحَمَّدٍ رَسُولِ اللَّهِ، وبيان ذلك أنها جملتان، الجُملة الأولى: لا إله إلا اللَّه: والإله هو المعبود بحق، فالمعنى: لا معبود بحق موجودًا في الوجود إلا اللَّه.

فقد دلَّت هذه الجملة على نفي الأُلُوهيَّة، التي هي استحقاق المعبود بالعبادة كما عرفت عن كل ما سواه منطُوقًا، وعلى ثبوتها له تعالى وحده مفهومًا، وهذا يستلزم استغناؤه تعالى عن كل ما سواه، وافتقار كل ما سواه إليه تعالى، أما استغناؤه عن كل ما سواه فيوجب له تعالى الوجود والقدم والبقاء ومخالفته للحوادث وقيامه بنفسه، إذ لو ماثل شيئًا منها لزمه ما لزمها من الافتقار وهو مُحال، ولو قام بغيره لكان مفتقرًا إلى ذلك الغير.

ويوجب له أيضًا التَّنزه عن النَّقائص، وهو يستلزم وجوب السَّمع والبصر والكلام، والتَّنزه عن الأغراض في الأفعال والأحكام، وإلا كان مفتقرًا إلى ما يتكمل به من ذلك الغرض، وعدم وجوب فعل شيء من الممكنات أو تركه، وعدم كون شيء من الممكنات يؤثر بقوة أودعها اللَّه فيه، وإلا لم يكن مستغنيًا عن كل ما سواه، كيف

وهو الغني بالإطلاق عن كل ما سواه، وأما افتقار كل ما سواه إليه تعالى فهو يوجب له تعالى، القدرة والإرادة والعلم والحياة والوحدانية كما تقدَّم، من أن التَّعدد يوجب العجز، ويؤخذ منه حدوث العالم بأسره ونفي تأثير شيء منه بالطَّبع أو بالعلة، وإذا وجب شيء استحال ضده.

هذا حاصل ما بيَّنهُ الإمامُ السُّنوسي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وذلك أن تقول: اللَّهُ عَلَمٌ عَلَى الذَّاتِ الْوَاجِبِ الْوُجُودِ الْخَالِقُ لِلْعَالَمِ. وقد دلَّت هذه الجُملة على حصر الأُلُوهيَّة فيه تعالى، وظاهر أن كونه واجب الوجود وخالقًا للعالم يتضمن جميع ما ذكر.

وأما الجُملة الثَّانية: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ: فقد دلَّت على ثبوت الرِّسالة له صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وذلك يستلزم صدقه في كل ما أخبر به وأمانته، وتبليغه للعباد في كل ما أمر بتبليغه من الأحكام، وفطانته إذ الرَّسُول لا يكون إلا معصُومًا.

واستحالة أضدادها عليه صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وجواز كل ما لا يؤدي إلى نقص في علو مرتبته من الأعراض البشريَّة، ووجوب صدقه يستلزم الإيمان بكل ما جاء به.

ومن ذلك إرسال الرُّسُل وهو يستلزم ما يجب في حقِّهم وما يستحيل وما يجوز.

والإيمان بسائر الكُتب السَّماوية واليوم الآخر والحساب، وما عليه مما مرَّ من جميع السَّمعيات، ولتضمنها جميع عقائد الإيمان جعلها الشارع ترجمة على ما في القلب، ولم يقبل من أحد الإسلام إلا بها، ومن ثم كانت أفضل الأذكار. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ مَا قُلْتُهُ أَنَا وَالنَّبِيُّونَ مِنْ قَبْلِي لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ». وهذا الكلام المتقدّم يسمى عند أهل الكلام أي أهل التَّوحيد بدرج العقائد، وهو مندوبٌ.

وقوله (فَاذْكُرْ لَهَا لِتَغْنَمَا): أي لازم على ذكر هذه الكلمة، وهي كلمة التَّوحيد، قالوا: لا شيء أقرب لصفاء القلب من كثرة ذكر لا إله إلا اللَّه.

مع الآداب التي ذكرها أهل اللّه، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، ومتى ترك السَّالك الآداب أو أكثرها بعد عليه الوصول إلى مطلوبه.

والآداب: إما قبليَّة، أو مصاحبة، أو بعديَّة.

فالقبليَّة: أن يجدد التَّوبة مما وقع فيه من المخالفات أو الخواطر الرديئة، وأن يتطهر من الحدث والخبث، وأن يتوجه إلى اللَّه تعالى برغبة لتحصل له الجمعيَّة في الذِّكر، وأن يستغفر اللَّه تعالى بما تيسر بأي صيغة كانت، وأن يصلي على النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وأن

يستقبل القبلة لأنها أفضل الجهات، وأن يستحضر شيخه ليكون رفيقه في السَّير، ثم يشرع في الذكر.

وأما الآداب المُصاحبة له: بأن يستحضر معناها إجمالاً، وأن يحقق الهمزة ويمد ألف لا مدًّا متوسطًا، ويفتح هاء إله فتحة خفيفة، ويمد ألف اللَّه وألف إله مدًّا طبيعيًا، ويأتي بالهاء من اللَّه، ويقف عليها، وأن يذكر بهمة وقوة، وأن يكون ذكره رغبة في مرضاة اللَّه ومحبته، وامتثالاً لأمره لا رياء ولا سمعة، ولا لأمر دنيوي أو أخروي، وأن ينفي الأكوان من قلبه، لأن ملاحظة شيء منها قاطع عن اللَّه تعالى، ولولا أن للشيخ مدخلاً في السير ما سوغوا له ملاحظته في حال البداية، وأن يجلس كجلوسه في التَّشهد إلا لتعب، فيجوز له التَّربع، وأن يغمض عينيه، لأن له تأثيرًا في تنوير القلب، وأن يبتدأ بلا جهة اليمين، ويرجع بإله، ويختم باللَّه جهة اليسار، مُشيرًا إلى قلبه، فإذا أراد ختم الذكر ختمه بمحمد رسول اللَّه.

وأما الآداب البعديَّة: فإنه يسكت ويسكن بخشوع، فإن للذِّكر واردات ترد على قلب الذَّاكر، ولا يتمكن الوارد من القلب إلا بذلك، فإذا كان الوارد وارد زهد وجب التَّمهل حتَّى يتم ويتمكن من القلب، فتستوي عنده الدُّنيا أقبلت أم أدبرت، وإذا كان وارد توكُّل

صار بعد ذلك مُفوضًا أمره إلى ربه في كل شيء، وإذا كان وارد صبر صار بعد ذلك لا ينزعج من تفاقم الأهوال، وهكذا من الواردات.

قَالَ الإِمَامُ الْغَزَالِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ولهذه السكتة آداب: مراقبة الله تعالى، وإجراء معنى الذِّكر على قلبه، ونفي الخواطر كلها، وجمع حواسه كلها بحيث لا تتحرك منه شعرة، كحال الهرة عند اصطياد الفأرة، وأن يكتم نفسه بقدر الطَّاقة مرارًا، أقلها ثلاثة إلى سبعة حتى يدور الوارد في جميع أركانه، وألا يبادر بشرب الماء عقب الذِّكر، لأنه يطفئ ما تحصل من أنواره.

(فَائِدَةٌ): قَالَ شَيْخُنَا الشَّيخ عَبْد الرَّحِيم عَلِيّ جَاد اللَّه رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: ما لم يكن الماء داخل حلقة الذِّكر فإنه نورٌ، فتدَّبر.

قَالَ السَّيِّدُ المَحْجُوبُ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ فِي كِتَابِهِ "جَوَاذِبُ الْقُلُوبِ": فَائِدَةٌ: قَالَ الشَّيْخُ ابْنُ الْجَزَرِيّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فِي "الْحِصْنِ الْحَصِينِ": وَكُلُّ ذِكْرٍ مَشْرُوعٍ، وَاجِبًا كَانَ أَوْ مُسْتَحَبًّا، لَا يُعْتَدُّ بِشَيْءٍ مِنْهُ، حَتَّى يُتَلَفَّظَ بِهِ، وَيُسْمِعَ نَفْسَهَ.

قَالَ شَارِحُهُ الْمُلَّا عَلِيُّ الْقَارِئ، رَحِمَهُ الْبَارِئ: وَهَذَا الْإِسْمَاعُ أَقَلُّهُ الْإِخْفَاء عِنْدَ الْجُمْهُورِ. وَفِي مَذْهَبِنَا هُوَ الْقَوْلُ الْمَشْهُورُ. وَقِيلَ: أَقَلُّهُ تَصْحِيحُ الْحُرُوفِ، وَهُوَ مُجَرَّدُ التَّلَفُّظِ، مِنْ غَيْرِ أَنْ يَكُونَ هُنَاكَ صَوْتٌ يُسْمَعُ، وَهَذَا كُلُّهُ مَا أَمَرَ الشَّارِعُ بِأَنْ يُذْكَرَ بِاللِّسَانِ، كَمَا فِي

قِـرَاءَةِ الصَّـلَاةِ، وَتَشَـهُّدِهَا وَتَسْـبِيحِهَا وَتَكْبِيرَاتِهَـا، وَسَـائِرِ أَذْكَارِهَـا وَأَدْعِيَتِهَا. وَلَيْس مَعْنَاهُ أَنَّ مَنْ يَذْكُرَ اللَّهَ بِقَلْبِهِ، غَيْر أَنْ يَتَلَفَّظَ بِلِسَانِهِ، لَا يَكُونُ فِي الشَّرْعِ مُعْتَدّ بِهِ، لِأَنَّ مُدَاوَمَةَ الذِّكْرِ لَا تُتَصَوَّرُ بِدُونِ اعْتِبَارِهِ، بَلْ هُوَ أَفْضَلُ أَنْوَاعِهِ.

فَقَدْ أَخْرَجَ أَبُو يَعْلَى الْمَوْصِلِيُّ فِي "مُسْنَدِهِ"، عَنِ السَّيِّدَةِ عَائِشَةَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا، قَالَتْ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يُفَضِّلُ الذِّكْرَ الْخَفِيَّ، الَّذِي لَا يَسْمَعُهُ الْحَفَظَةُ سَبْعِينَ ضِعْفًا. فَيَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ، وَجَمَعَ اللَّهُ الْخَلَائِقَ لِحِسَابِهِمْ، وَجَاءَتِ الْحَفَظَةُ بِمَا حَفَظُوا وَكَتَبُوا. قَالَ اللَّهُ لَهُمْ: انْظُرُوا. هَلْ بَقِيَ لَهُ مِنْ شَيْءٍ؟، فَيَقُولُونَ: رَبَّنَا مَا تَرَكْنَا شَيْئًا مِمَّا عَلِمْنَاهُ وَحَفِظْنَاهُ، إِلَّا وَقَدْ أَحْصَيْنَاهُ وَكَتَبْنَاهُ. فَيَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَهُ: إِنَّ لَكَ عِنْدِي خَبْئًا لَا تَعْلَمُهُ، وَأَنَا أَجْزِيكَ بِهِ، وَهُوَ الذِّكْرُ الْخَفِيُّ. ذَكَرَهُ السُّيُوطِيُّ فِي "الْبُدُورُ السَّافِرَةَ فِي أَحْكَامِ الآخِرَةِ". وَفِي "الْجَامِعَ": خَيْرُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ، وَخَيْرُ الرِّزْقِ مَا يَكْفِي. كَمَا رَوَاهُ أَحْمَدُ، وَابْنُ حِبَّانَ، وَالْبَيْهَقِيُّ، عَنْ سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ اهـ.

يَقُولُ الْفَقِيرُ، كَانَ اللَّهُ لَه -الْمُرَادُ بِهِ السَّيِّد الْمَحْجُوب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ-: وَأَنْتَ إِذَا تَأَمَّلْتَ قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ وَلَا تَكُنْ مِنَ الْغَافِلِينَ﴾ [الأعراف: ٢٠٥]، وَجَدْتَهُ ثَلَاثَة أَنْوَاعٍ: نَفْسِيٌّ وَسِرِّيٌّ وَجَهْرِيٌّ، وَفَضْلُهَا عَلَى تَرْتِيبِهَا.

وقَالَ الْأُسْتَاذُ أَبُو الْقَاسِمِ الْقُشَيْرِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى فِي "رِسَالَتِهِ": وَالذِّكْرُ عَلَى ضَرْبَيْنِ: ذِكْرٌ بِاللِّسَانِ وَذِكْرٌ بِالْقَلْبِ، فَذِكْرُ اللِّسَانِ بِهِ يَصِلُ الْعَبْدُ إِلَى اسْتِدَامَةِ ذِكْرِ الْقَلْبِ، وَالتَّأْثِيرُ لِذِكْرِ الْقَلْبِ، فَإِذَا كَانَ الْعَبْدُ ذَاكِرًا بِلِسَانِهِ وَقَلْبِهِ، فَهُوَ الْكَامِلُ فِي وَصْفِهِ، فِي حَالِ سُلُوكِهِ.

وَقَالَ أَيْضًا: وَقِيلَ: الذِّكْرُ الْخَفِيُّ لَا يَرْفَعُهُ الْمَلَكُ، لِأَنَّهُ لَا اطِّلَاعَ لَهُ عَلَيْهِ، فَهُوَ سِرٌّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى.

وقَالَ النَّوَوِيُّ، رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فِي "أَذْكَارِهِ": الذِّكْرُ يَكُونُ بِالْقَلْبِ وَيَكُونُ بِاللِّسَانِ، وَالْأَفْضَلُ مِنْهُ مَا كَانَ بِالْقَلْبِ وَاللِّسَانِ جَمِيعًا.

وَفِي هَذَا الْبَابِ كَثِيرٌ، لَا سِيَّمَا عِنْدَ أَهْلِ الْبَاطِنِ الْعَارِفِينَ بِاللَّهِ تَعَالَى، كَيْفَ وَهُوَ عِنْدَهُمْ الرُّكْنُ الْأَعْظَمُ، الَّذِي عَلَيْهِ مَدَارُ أَسْرَارُهُمْ وَأَحْوَالُهُمْ، فَإِذَا عَرَفْتَ ذَلِكَ فَاعْلَمْ أَنَّ قَوْلَ الْفُقَهَاءِ لَا يُثَابُ الشَّخْصُ عَلَى الْأَذْكَارِ، إِلَّا بِفِعْلِهَا بِاللِّسَانِ، إِنَّمَا ذَلِكَ فِي الْأَذْكَارِ الَّذِي طَلَبْنَا بِهَا وُجُوبًا وَاسْتِحْبَابًا، كَمَا قَالَ ابْنُ الْجَزَرِيِّ وَغَيْرُهُ، لَا مُطْلَقًا، فَافْهَمْ ذَلِكَ.

قَالَ الدَّرْدِيرُ فِي "خَرِيدَتِهِ": تَرَقَّى بِهَذَا الذِّكْرِ أَعْلَى الرُّتَبِ.

جمع رُتبة وهي: الخليقةُ الحسنةُ المحمود عاقبتها، وأدنى الرُّتب الإسلاميَّة لوم النفس على ما صدر منها من المخالفات، وأعلاها رُتبة الصِّدِّيقيَّة ينالها العبد بعد دخوله في مقام الإحسان، وهو أن

تعبد الله كأنك تراه. ورُتبة الصِدِّيقيَّةِ في نفسها مراتب متفاوتة بعضها أعلى من بعض، وأعلاها رتبة سيدنا أبي بكر الصِدِّيق رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. قَالَ الْصَّاوِيُّ: أي ولم يرتق إليها غيره من باقي الأمة المحمديَّة فضلاً عن سائر الأمم، لما في الحديث الشريف: «مَا طَلَعَتِ الشَّمْسُ عَلَى أَحَدٍ بَعْدَ النَّبِيّينَ أَفْضَلَ مِنْ أَبِي بَكْرٍ». وَفِي رِوَايَةٍ: «لَوْ وُزِنَ إِيمَانُ أَبِي بَكْرٍ بِإِيمَانِ الْأُمَّةِ لَرَجَحَ».

نرجع إلى الدَّرْدِيرِ: ولا يعلو مقام الصِدِّيقيَّة إلا مقام النُّبُوة، فصاحب مقام الصِدِّيقيَّة لو تخطَّى مقامه لنزل في مقام النُّبُوة، إلا إن النُّبُوة قد ختمت بنبينا محمد صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، والصِدِّيقيَّة لم تختم، فمقام الصِدِّيقيَّة مقام الولاية الكُبْرى والخلافة العُظمى.

فهذا المقام تترادف فيه الفُتُوحات، وتعظم التَّجلِّيات، وتتم المُشاهدات والكُشُوفات، لكمال النَّفس وحسن صفائها، ولا يمكن الوُصول إليه إلا بعد الفناء، وهو زوال صفات النَّفس المزمومة بالكلية، حتى لا تصير ملتفتة إلى شيء منها، بل تزهدها كما تزهد أكل الجيفة مثلاً.

وصفاتها المذمومة هي: الحسد، والحقد، وحب الجاه والصيت والمحمدة والرئاسة والشهوات، والكبر، والرِّياء، والعجب، والنِّفاق، والغُرور، وبغض أحد من الخلق لغير غرض شرعي، ونحو ذلك.

فإذا زالت عنه هذه الأوصاف القبيحة اتصف بأضدادها، من الصفات الحميدة: كالشَّفقة، والرَّأفة على الخلق، حتى يحب لغيره ما يحب لنفسه، والإخلاص، وحسن الخلق، والسَّخاء.

والمسكنةُ التي طلبها النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بقوله: «اللَّهُمَّ أَحْيِنِي مِسْكِينًا، وَأَمِتْنِي مِسْكِينًا، وَاحْشُرْنِي فِي زُمْرَةِ الْمَسَاكِينِ». وهذه المسكنة هي خُضوع النفس لمقام الأُلُوهيَّة، وخفض الجناح للبريَّة، حتى لا يشم صاحبها للرئاسة رائحة، وصاحبها هو العبد الحقيقي الصِّدِّيق، فمن لم يتصف بها لم تخل نفسه من منازعة الحقِّ تعالى في أخصِّ أوصافه، لأن الرِّئاسة إنما تكون للفاعل المُختار الغني على الإطلاق، وهي لا تفارق الإنسان إلا بعد المجاهدة الكبرى، فعِرْقها لا ينقطع عن أحد، إلا من خصه بالعُبوديَّة المحضة. ولذا قالوا: آخر ما يخرج من قلب الصِّدِّيقين حب الرِّئاسة.

ولا يسهل الوُصول إليها عادة إلا بمداومة ذكر لا إله إلا اللَّه، ليلاً نهارًا، مع تعلق القلب باللَّه وحده، والجوع، والسَّهر، والاعتزال عن النَّاس، والصَّمت إلا عن ذكر اللَّه تعالى، وملاحظة بقية أركان الطَّريق، التي سيأتي بيانها إن شاء اللَّه تعالى، وهو المُسمَّى بالمجاهدة قَالَ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا﴾

[العنكبوت: ٦٩].

وهذا التَّرقي هو المُسمَّى بالسُّلوك إلى ملك المُلوك عند الطَّائفة، وأما السَّير إلى الله تعالى فهو توجه القلب إلى الرَّب، مع مخالفة النَّفس في شهواتها ولو مُباحًا، طلبًا لمرضاة الله تعالى، وإيثارًا له على ما سواه، فالسَّير كالسَّبب في السُّلوك، وقد يطلق السُّلوك على المعنى الثَّاني وهو التَّوجه إلى الرَّب مع مخالفة النَّفس.

والسُّلوك إلى الله تعالى طريقة النَّبِيّين والصِّدِّيقين والعُلماء العاملين، إلا أنه مختلف، فسُلُوك الأنبياء عَلَيْهِمْ السَّلَامُ مبدؤه من نفوس مُطهَّرة كماليَّة إلى ما لا نهاية له من المقامات الإحسانيَّة، وهو في نفسه متفاوت، فسُلوك أولي العزم منهم أعلى وأجلّ من سُلُوك غيرهم كسُلُوك سيد أولي العزم، عَلَيْهِ وَعَلَيْهِمْ أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَالسَّلَامِ، أعلى من غيره، إذ مبدؤه نهاية غيره.

وأما سُلُوك غيرهم فمن نفوس أمَّارة أو لوَّامة ظُلمانيَّة إلى نفس كاملة صِدِّيقية، والنهايات تختلف في الإشراق بحسب اختلاف البدايات، فبإحراق البداية يكون إشراق النهايَّة.

والنُّفُوس سبعة: بحسب أوصافها وإلا فهي واحدة:

الأولى: النَّفس الأمَّارة بالسُّوء: وهي التي لا تأمر صاحبها بخير، فإذا جاهدها صاحبها وخالفها في شهواتها حتى أذعنت لاتباع الحق

وسكنت تحت الأمر التَّكليفي، ولكنها تغلب صاحبها في أكثر أحوالها.

ثم ترجع إليه باللَّوم على ما وقع، فسميت لوَّامة وهي الثَّانية.

فإذا أخذ في المُجاهدة والكد حتَّى مالت إلى عالم القدس واستنارت، بحيث ألهمت فُجُورها وتقواها، سميت ملهمة وهي الثَّالثة. وعلاماتها: أن يعرف صاحبها دسائسها الخفيَّة الدقيقة من الرِّياء والعجب وغير ذلك.

فإذا لزم المُجاهدة حتَّى زالت عنها الشَّهوات وتبدلت الصِّفات المزمومة بالمحمودة، وتخلقت بأخلاق الله الجماليَّة من الرَّأفة والرَّحمة واللُّطف والكرم والودّ، سميت مطمئنة وهي الرَّابعة.

وهذا المقام هو مبدأ الوُصول إلى الله تعالى، ولكنها لا تخلو من دسائس خفية جدًّا، كالشِّرك الخفي، وحب الرِّئاسة، إلا أنها بخفائها ودقتها لا يدركها إلا أهلها، الذين نوَّر الله بصائرهم، لأن ظاهرها الصَّلاح والاتصاف بالصِّفات الحميدة من الكرم، والحلم، والتَّوكل، والزُّهد، والورع، والشُّكر، والصَّبر، والتَّسليم، والرِّضاء بالقضاء، مع انكشاف بعض أسرار، وانخراق بعض عادات، وظهور بعض كرامات، فلربما ظنَّ صاحبها بأنه الإمام الأعظم، وأن مقامه هو المقام الأفخم، وهذا من جملة الدَّسائس.

فإذا أدركته العناية الإلهيَّة واستند إلى شيخه بالكليَّة، ولازم المُجاهدة حتى تمكَّنت من الصِّفات المحمودة، وانقطع عنه عرق الرِّياء، وصارت نفسه ذليلة، واستوى عنده المدح والذَّم، ودخلت في مقام الفناء، ورضيت بكل ما يقع في الكون من غير اعتراض أصلاً، سُميَّت راضيَّة وهي الخامسة.

ولكن رؤية الفناء والإخلاص ربما أوقع في شيء من الإعجاب، فيرجع به القهقري، فليستعذ بالله من ذلك مع مداومة الذِّكر والالتجاء إلى الله، وملاحظة أنه لا يتم له الخلاص إلا بمدد الشَّيخ.

فإذا فني عن الفناء، وخلص من رؤية الإخلاص، تجلَّى عليها بالرِّضاء، وعفي عن كل ما مضى، وتبدلت سيئاتها حسنات، وانفتح لها أبواب الأذواق والتَّجلِّيات، فصارت غريقة في بحر التَّوحيد، وآنستها بلابل الأسرار بالتَّغريد، ولذا سُميّت مرضيَّة، لأنها بعنايات الله مرعية وهي السَّادسة.

إلا أن صاحب الهمة العليَّة لا يرضى بالوُقُوف عند هذه المقامات، وإن كانت سنيَّة، بل يسير من الفناء إلى البقاء، ويطلب وصل الوصل بتمام اللِّقاء، فتناديه حقائق الأكوان: ﴿إِنَّمَا نَحْنُ فِتْنَةٌ فَلَا تَكْفُرْ﴾ [البقرة: ١٠٢]. ﴿وَأَنَّ إِلَى رَبِّكَ الْمُنْتَهَى﴾ [النجم: ٤٢].

فإذا سار إلى منازل الأبطال، وخلف الدُّنيا وراء ظهره، ناداه ربه بأحسن مقال: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ [الفجر: ٢٧-٣٠]. فيدخلها ربها في عباد الإحسان، ويخلع عليها خلع الرِّضوان، ويدخلها جنات الشُّهود، ويجلسها في مقعد صدق عند الملك المعبود.

وفي هذا المقام قد تمت المُجاهدة والمكابدة، لأن صفات الكمال صارت لها طبعًا وسجيّة، وتسمَّى النَّفس فيه بالكاملة، وهي السَّابعة، وهي أعظم النُّفوس قدرًا، وأكملها فخرًا.

مع ذلك لا ينقطع ترقيها أبدًا، لأن الكامل يقبل الكمال، فلم تزل في ترقي حتى تشهد الحق تعالى قبل الأكوان، ومشاهدته تعالى قبل كل شيء هو المُسمَّى عندهم بالمُعاينة، وهذا هو عين اليقين، بعد أن حازت علم اليقين، الذي هو معرفته تعالى بالبراهين، ثم حق اليقين وهو مشاهدته تعالى في كل شيء من غير حلول ولا اتحاد ولا اتصال ولا انفصال، كالمرآة ترى فيها وجهك من غير حلول الوجه فيها ولا اتحاد. وهذا مشهد ذوقي لا يدركه إلا أهله، وصاحب هذا المقام لا يفتر عن العبادة، لأنها صارت طبعه، إما باللِّسان وإما بالجنان وإما بالأركان، فحركاته حسنات وأنفاسه عبادات. وَلِذَا قَالَ سَيِّدِي مُحَمَّد وَفَا أَبُو سَيِّدِي عَلِيّ وَفَا رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ:

وبعد الفنا في اللَّه فكن كيفما تشا   فعلمك لا جهل وفعلك لا وزر

فهو محفوظٌ من الوُقوع في المُخالفات، لحضوره دائمًا مع اللَّه في جميع الحالات.

واعلم أن الكاملين من النَّاس من أقل الأقل، إذ السَّالكون إلى اللَّه تعالى من المؤمنين قليلون، والواصلون منهم قليلون، والكاملون منهم قليلون، إذ السَّير إلى اللَّه تعالى صعبٌ جدًّا، لا يقدر عليه إلا ذو همَّة علية وصدق كامل، إذ ترك المألوفات من الطَّعام والمنام وجمع المال وحب الجاه وسائر الشَّهوات، لا يقدر عليه إلا القليل من الأبطال، والطَّريق فيها مفاوز ومهلكات، فالنَّاجي فيها قليل، ولذا قيل:

كَيْفَ السَّبِيلُ إِلَى سُعَادَ وَدُونَهَا   قُلَلُ الْجِبَالِ وَدُونَهُنَّ حُتُوفُ

الرِّجْلُ حَافِيَةٌ وَمَا لِي مَرْكَبٌ   وَالْكَفُّ صِفْرٌ وَالطَّرِيقُ مَخُوفُ

اهـ " الدَّرْدِير".

طَرِيقُ الْقَوْمِ (التَّصَوُّفُ)

هَــذَا وَلاَزِمْ لِطَرِيــقِ القَــوْمِ   وَحَــصِّلِ التَّــقْوَى وَدَعْ لِلنَّـوْمِ

وأما قوله (هَذَا وَلاَزِمْ لِطَرِيقِ القَوْمِ) شُروعٌ منه في علم التَّصوُّف الذي هو حياة القلوب، لذا ذكره بعد التوحيد.

والتَّصوُّف لغة بمعنى الاشتقاق، وهو مأخوذ من الصَّفاء. وقيل: من صوفة القفاء للينها، وإن الصُّوفي هين لين يقود وينقاد يألف ويؤلف. وقيل: من صفة المسجد النَّبوي لأن به أهل الصُّفة. وقيل من الصُّوف. وقيل من الصُّوفة، لأنه كالصُّوفة المعلقة في الهواء، أي صاحبها لا تدبير له.

وفي الاصطلاح هو: صفاء القلب من أصول الأمراض القلبيَّة تخلية، والاتصاف بمقامات اليقين تحلية.

التَّصوُّف يطلق على العلم والعمل، بل هو خلاصة العلم، إذ لا تصوف إلا بعلم أي بفقه، كما لا فقه إلا باعتقاد أي توحيد وإيمان، إذ لا تعرف أحكام الله الطاهرة إلا به، كما لا فقه إلا بتصوف، إذ لا عبرة بفقه لا يصحبه صدق التوجه إلى الله تعالى.

قِيلَ: مَنْ تَصوَّفَ وَلَمْ يَتَفَقَّهْ فَقَدْ تَزَنْدَقَ، وَمَنْ تَفَقَّهَ وَلَمْ يَتَصَوَّفْ فَقَدْ تَفَسَّقَ، وَمَنْ جَمَعَ بَيْنَهُمَا فَقَدْ تَحَقَّقَ. ويؤخذ من هذا الكلام أن

معرفة هذا العلم واجبة على الأعيان، وبه صرَّح الإِمَام الْغَزَالِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَأَنْشَدَ ابْنُ الْحَاجِّ فِي "الْمَدْخَلِ":

لَيْسَ التَّصَوُّفُ لُبْسَ الصُّوفِ تُرْقِعُهُ ... وَلَا بُكَاؤُكَ إِنْ غَنَّى الْمُغَنُّونَا
وَلَا صِيَاحٌ وَلَا رَقْصٌ وَلَا طَرَبٌ ... وَلَا ارْتِعَاشٌ كَأَنْ قَدْ صِرْتَ مَجْنُونَا
بَلْ التَّصَوُّفُ أَنْ تَصْفُو بِلَا كَدَرٍ ... وَتَتْبَعَ الْحَقَّ وَالْقُرْآنَ وَالدِّينَا
وَأَنْ تُرَى خَاشِعًا لِلَّهِ مُكْتَئِبًا ... عَلَى ذُنُوبِكَ طُولَ الدَّهْرِ مَحْزُونَا

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ عَمِلَ بِمَا عَلِمَ وَرَّثَهُ اللَّهُ عِلْمَ مَا لَمْ يَعْلَمْ»، وهو من قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٨٢].

وَمِنْ هَذَا مَا قَالَهُ ابْنُ أَبِي الْحَوَارِيّ عَنْ شَيْخِهِ أَبِي سُلَيْمَانَ الدَّارَانِيّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا: إِنَّ النُّفُوسَ إِذَا اعْتَادَتْ عَلَى تَرْكِ الْآثَامِ جَالَتْ فِي الْمَلَكُوتِ، وَرَجَعَتْ إِلَى صَاحِبِهَا بِطَرَائِفِ الْحِكْمَةِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يؤَدِّيَ إِلَيْهَا عَالِمٌ عِلْمًا.

أَمَّا سَنَدُ التَّلْقِين: رَوَى الإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالْبَزَّارُ، وَالطَّبَرِيُّ، وَغَيْرُهُمْ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، بِإِسْنَادٍ حَسَنٍ: «أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَانَ يَوْمًا مُجْتَمِعًا مَعَ أَصْحَابِهِ، فَقَالَ: هَلْ فِيكُمْ غَرِيبٌ؟، يَعْنِي مِنْ أَهْلَ الْكِتَابِ. قَالُوا: لَا يَا رَسُولَ اللَّهِ، فَأَمَرَ بِغَلْقِ الْبَابِ، وَقَالَ: ارْفَعُوا أَيْدِيَكُمْ، وَقُولُوا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. قَالَ شَدَّادُ بْنُ أَوْسٍ: فَرَفَعْنَا أَيْدِينَا

سَاعَةً. وَقُلْنَا: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: اللَّهُمَّ إِنَّكَ بَعَثْتَنِي بِهَذِهِ الْكَلِمَةِ وَأَمَرْتَنِي بِهَا، وَوَعَدْتَنِي عَلَيْهَا الْجَنَّةَ، إِنَّكَ لَا تَخْلِفُ الْمِيعَادَ. ثُمَّ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَبْشِرُوا إِنَّ اللَّهَ قَدْ غَفَرَ لَكُمْ».

وأخذ العُهُود من المشايخ بتجديد التَّوبة والإيمان، على من هو أعرف منك في ذلك قديم، وأوَّل من وضع هذا العلم النَّبِيّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، علَّمه اللَّه له بالوحي والإلهام، فنزل سيدنا جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ أوَّلاً بالشَّريعة، فلما تقررت نزل ثانيًا بالحقيقة، فخصَّ بها بعضًا دون بعض.

وَأَوَّلُ مَنْ تَكَلَّمَ فِيهِ وَأَظْهَرَهُ سَيِّدُنَا الإِمَامُ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ كَرَّمَ اللَّهُ وَجْهَهُ، وَأَخَذَهُ عَنْهُ الْحَسَنُ الْبَصْرِيّ، وَأَخَذَهُ عَنِ الْحَسَنِ حَبِيبٌ العَجَمِيّ، وَأَخَذَهُ عَنْ حَبِيبٍ أَبُو سُلَيْمَانَ دَاوُدَ الطَّائِيّ، وَأَخَذَهُ عَنْ دَاوُدَ أَبُو مَحْفُوظٍ مَعْرُوف بْنُ فَيْرُوزَ الْكَرْخِيّ، رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ، وَأَخَذَهُ عَنِ الْكَرْخِيّ أَبُو الْحَسَنِ سَرِيُّ بْنُ مُغَلِّسٍ السَّقَطِيّ، وَأَخَذَهُ عَنِ السَّرِيّ إِمَامُ هَذِهِ الطَّائِفَةِ وَالطَّرِيقَةِ وَمظْهرُ أَعْلَامِ الْحَقِيقَةِ أَبُو الْقَاسِمِ مُحَمَّدُ بْنُ الْجُنَيْد الخزَّازُ، أَصْلُهُ مِنْ نَهَاوَنْدَ، وَمَنْشَأُهُ الْعِرَاق، تَفَقَّهَ عَلَى أَبِي ثَوْرٍ، وَكَانَ يُفْتِي عَلَى مَذْهَبِ أَبِي ثَوْرٍ، ثُمَّ صَحِبَ خَالَهُ السَّرِيّ السَّقَطِيّ، وَأَبُو الْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيّ وَغَيْرهُمَا، رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ.

وَكَلَامُهُ وَحَقَائِقُهُ مَعْرُوفَةٌ فِي الْكُتُبِ. تُوُفِّيَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ سَنَةَ سَبْعٍ وَتِسْعِينَ وَمِائَتَيْنِ. وَقَبْرُهُ بِبَغْدَادَ مَشْهُورٌ يُزَارُ، بَلْ كَعْبَةٌ مَحْجُوجَةٌ. ثُمَّ انْتَشَرَ التَّصَوُّفُ فِي أَصْحَابِهِ وَهَلُمَّ جَرًّا، وَلَا يَنْقَطِعُ حَتَّى يَنْقَطِعَ الدِّينُ.

قال الإمام أبو عبد الله ابن عباد رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: لا بد للمريد في هذا الطَّريق من صحبة شيخ عارف محقق، قد فرغ من تأديب نفسه، وتخلص من هواه، فيسلم نفسه إليه، وليلزم طاعته، والانقياد إليه في كل ما يشير به عليه، من غير ارتياب ولا تردد.

وَقَدْ قَالُوا: مَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ شَيْخٌ، فَإِنَّ الشَّيْطَانَ شَيْخُهُ.

وَقَالَ أَبُو عَلِيّ الثَّقَفِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو أَنَّ رجلاً جمع العلوم كلها، وصحب طوائف الناس، لا يبلغ مبلغ الرجال إلا بالرياضة من شيخ أو إمام أو مؤدب ذي نصح، ومن لم يأخذ آدابه من آمر له وناهي يريه عيوب أعماله ورعونات نفسه، لا يجوز الاقتداء به في تصحيح المعاملات.

وقد أستفيد من هذا الكلام ثلاث مسائل:

الأُولى: أن التَّصوف يوصل العبد للإخلاص الذي هو رُوح العبادة. الثَّانية: أن معرفته فرض عين على كل مكلف. الثَّالثة: أن تحصيل هذا العلم لا بد له من شيخ. اهـ "مَيَّارَة شرح ابن عاشر".

قَالَ الإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ الْجُنَيْد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: مَا أَخَذْنَا التَّصَوُّفَ عَنِ الْقَالِ وَالْقِيلِ، لَكِنْ عَنِ الْجُوعِ وَتَرْكِ الدُّنْيَا، وَقَطْعِ الْمَأْلُوفَاتِ، وَالْمُسْتَحْسَنَاتِ.

وَمِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا: الطُّرُقُ كُلُّهَا مَسْدُودَةٌ عَلَى الْخَلْقِ إِلَّا مَنِ اقْتَفَى أَثَرَ الرَّسُولِ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ.

وَمِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا: لَوْ أَقْبَلَ صَادِقٌ عَلَى اللَّهِ أَلْفَ أَلْفَ سَنَةٍ، ثُمَّ أَعْرَضَ عَنْهُ لَحظَةً، كَانَ مَا فَاتَهُ أَكْثَرَ مِمَّا نَالَهُ.

وَمِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا: إن بدت ذرة من عين الكرم والجود ألحقت المسيء بالمحسن، وبقيت أعمالهم فضلاً لهم.

وَمِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا: من الأعمال ما لا تطلع عليه الحفظة، وهو ذكر اللَّه بالقلب، وما أنطوت عليه الضمائر من الهيبة والتَّعظيم لله، واعتماد الخوف، وإجلال أوامره ونواهيه.

وَمِنْ كَلَامِهِ أَيْضًا: احفظوا ساعاتكم فإنها زائلة غير راجعة، وصلوا أورادكم تجدوا نفعها في دار الإقامة، ولا يشغلكم عن الله قليل الدُّنيا، فإن قليلها يشغل عن كثير الآخرة. اهـ "الْصَّاوِيّ عَلَى الْجَوْهَرَةِ".

وسئل الشيخ عبد القادر الجيلاني رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عن صفات الموارد الإلهيَّة والطوارق الشَّيطانيَّة؟، فقال: الوارد الإلهي لا يأتي

باستدعاء ولا يذهب بسبب، ولا يأتي على نمط واحد ولا في وقت مخصوص. والطَّارق الشَّيطاني بخلاف ذلك غالبًا.

وكان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يقول لأصحابه: اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا، واطيعوا ولا تخالفوا، وأصبروا ولا تجزعوا، وأثبتوا ولا تتمزقوا، وانتظروا ولا تيأسوا، واجتمعوا على الذِّكر ولا تتفرقوا، وتطهَّروا عن الذنوب ولا تتلطخوا، وعن باب مولاكم لا تبرحوا. اهـ "الطبقات الكبرى" لِلشَّعْرَانِيِّ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ وَعَنَّا بِهِ آمِينَ.

قَوْلُهُ رَضِيَ اللهُ عَنْهُ (وَحَصِّلِ التَّقْوَى):

التَّقوى لغة: هي الوقاية، وشرعًا: وقاية الإنسان نفسه عما يضره في الدنيا والآخرة.

ولها ثلاث مراتب: الأولى: التَّوقي من العذاب المخلد بالتَّبرئ عن الشَّرك، وَعَلَيْهِ قَوْله تَعَالَى: ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى﴾ [الفتح: ٢٦].

والثَّانية: التَّجنب عن كل ما فيه إثم من فعل أو ترك حتى الصَّغائر عند قوم، وهو المُتعارف باسم التَّقوى في الشَّرع، وهو المعني بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا﴾ [الأعراف: ٩٦].

والثَّالثة: أن يتنزه عما يشغل سره عن الحقِّ ويتبتل إليه، وهي التَّقوى المطلوبة حقيقة، بِقَوْلِهِ تَعالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ [آل عمران: ١٠٢].

وفي "تفسير ابن جُزي": درجات التَّقوى خمس: أن يتقى العبد الكفر وذلك مقام الإسلام. وأن يتقي المعاصي والمحرمات وهو مقام التَّوبة. وأن يتقي الشُّبهات وهو مقام الورع. وأن يتقي المباحات وهو مقام الزُّهد. وأن يتقى حضور غير الله على قلبه وهو مقام المُشاهدة.

قال: والبواعث على التَّقوى عشرة: خوف العقاب الدنيوي والأخروي، ورجاء الثَّواب الدنيوي والأخروي، فهذه أربعة، وخوف الحساب والحياء من نظر الله، وهو مقام المُراقبة، والشُّكر على نعمه لطاعته، والعلم لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ [فاطر: ٢٨]. وتعظيم جلال الله وهو مقام الهيبة وصدق المحبة فيه، لِقَوْلِ الْقَائِلِ:

تَعْصِي الْإِلَهَ وَأَنْتَ تُظْهِرُ حُبَّهُ ... هَذَا مُحَالٌ فِي الْقِيَاسِ بَدِيعُ
لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ ... إِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعُ

وَقَالَ آخرُ:

قَالَتْ وَقَدْ سَأَلَتْ عَنْ حَالِ عَاشِقِهَا ... بِاللَّهِ صِفْهُ وَلَا تَنْقُصْ وَلَا تَزِدِ
فَقُلْتُ لَوْ كَانَ رَهْنَ الْمَوْتِ مِنْ ظَمَأٍ ... وَقُلْتِ قِفْ عَنْ وُرُودِ الْمَاءِ لَمْ يَرِدِ

(وَدَعْ لِلنَّوْمِ) أي اترك النَّوم في الوقت الممنوع فيه، كبعد الصُّبح وبعد العصر إلى أن تصلي العشاء الأخيرة، والمنع منع كراهة، لكنه مانع من الخير الكثير.

التَّوْبَةُ

وَبَـادِرِ التَّوْبَـةَ كُـنْ شَـكَّارًا لِـنِعَمٍ وَلِلْبَلَاءِ صَـبَّارَا

قوله (وَبَادِرِ التَّوْبَةَ):

التَّوبة لغة: هي الرُجوع. وشرعًا: الرُجوع من أعمال ممنوعة شرعًا إلى أعمال مطلوبة شرعًا، وهي تجب وجوب الفرائض على الأعيان.

والأصل فيها الكتاب والسنة والإجماع:

أما الكتاب: فَقَوْله تَعَالَى: ﴿وَتُوبُوا إِلَى اللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ الْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [النور: ٣١]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا تُوبُوا إِلَى اللَّهِ تَوْبَةً نَصُوحًا عَسَى رَبُّكُمْ...﴾ [التحريم: ٨]. ولعل وعسى من الله تعالى بمعنى الوجوب.

وأما السُّنَّة: فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تُوبُوا، فَإِنِّي أَتُوبُ فِي كُلِّ يَوْمٍ سَبْعِينَ مَرَّةً». وَفِي بَعْضِهَا: «مِائَةَ مَرَّةٍ». وتوبته زيادة في التَّرقي. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «التَّائِبُ مِنَ الذَّنْبِ، كَمَنْ لَا ذَنْبَ لَهُ».

والإجماع: على أنها واجبةٌ على كل أحدٍ وجوبًا عينيًا من كُلِّ ذنبٍ كبيرًا كان أو صغيرًا، حقًّا لله تعالى أو لآدمي أو لهما، كان الذّنب

معلومًا عنده أو مجهولاً، فتجب التَّوبة من الذُّنوب المجهولة إجمالاً، ومن المعلومة تفصيلاً.

والتَّوبة لها شُروط خمسة: أوَّلها وأهمها: هو النَّدم على ما فات. الثَّاني: الإقلاع: وهذا الشَّرط يتصور في ذنب متلبس به الإنسان، والثَّالث: نية عدم الرُّجوع إلى هذا الذَّنب. الرَّابع: ردّ المظالم إلى أهلها. وهذه تسمَّى التَّبعات.

وأما الاستغفار المعتمد هو شرط كمال، فإذا فعل هذه الشُّرُوط انقلبت سيئاته حسنات، ولو عاد للذَّنب مرة أخرى يعد ذنب جديد يحتاج لنفس الشُّروط المتقدمة.

وقيل: التَّوبة هي الرُّجوع من أربعة أشياء إلى أربعة أشياء: من الكفر للإيمان، ومن المعصية إلى الطاعة، ومن البدعة إلى السُّنة، ومن الغفلة إلى اليقظة.

وأما الصَّغائر تكفر باجتناب الكبائر، والحق والتَّحقيق أن الكبائر ليس لها حد معين ومحدود، وما ورد في الأحاديث من تسميتها بالسَّبع الموبقات لا يدل على حصرها في سبع. وَلِهَذَا قَالَ سَيِّدُنَا عَبْد اللَّهِ بْن عَبَّاس رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «هِيَ إِلَى السَّبْعِينَ أَقْرَبُ». وَرُوِيَ: «هِيَ إِلَى سَبْعِمِائَةٍ أَقْرَبُ».

قوله (كُنْ شَكَّارا): أي كثير الشُّكر. قَالَتْ السَّيِّدَةُ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا وَعَنْ أَبِيهَا، بَعْدَ أَنْ ذَكَرَتْ حَدِيثًا طَوِيلاً: يَا رَسُولَ اللَّهِ، مَا يُبْكِيكَ؟، وَقَدْ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ مَا تَقَدَّمَ مِنْ ذَنْبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ، فَقَالَ: أَفَلَا أَكُونُ عَبْدًا شَكُورًا؟».

وحقيقة الشُّكر عند أهل التَّحقيق: الاعتراف بنعمة المنعم على وجه الخضوع.

والشُّكر أقسامه ثلاثة: نطق باللِّسان، وعمل بالأركان، واعتقاد بالجنان.

إن اللَّه سبحانه وتعالى منزهٌ عن الأغراض في الأفعال والأحكام -كما تقدَّم في عقيدة المخالفة للحوادث-، ولكن اقتضت حكمته جلَّ وعلا أن دوام النِّعم بالشُّكر، فإذا أردت أن تقيم النِّعمة عندك فقيِّدها بعقالها وهو الشُّكر.

كَمَا قَالَ السَّكَنْدَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: اختلف العلماء في الغني الشَّاكر والفقير الصَّابر أيهما أفضل؟ قال قومٌ: الأوَّل، وقال قومٌ الثَّاني، ولعظمة الشُّكر. قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَقَلِيلٌ مِنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ [سبأ: ١٣]. والكلام في الشُّكر كثيرٌ، انظره في المطولات إن شئت.

قوله (لِـنِعَمٍ): كما قال جلَّ وعلا: ﴿وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللَّهِ لَا تُحْصُوهَا﴾ [النحل: ١٨]، أي واحدة.

وَحَكَى رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الرَّجُلِ الَّذِي أَتَى الْمِيزَانَ، وَلَمْ تكُنْ لَهُ سَيِّئَة وَاحِدِة، فَأَتَى النِّدَاءُ مِنْ قِبَلِ الْحَقّ جَلَّ جَلَالُهُ: أَدْخِلُوا عَبْدِيَ الْجَنَّةَ بِفضْلِي، قَالَ: لَا يَا رَبِّ بَلْ بِعَمَلِي، قَالَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: عَبْدِي أَرَادَ الْحِسَابَ فَحَاسِبُوهُ، فَوَضَعُوا نِعْمَةَ الْبَصَرِ فِي كَفَّةٍ فَرَجَحَتْ بِحَسَنَاتِهِ، فَقَالَ: يَا رَبِّ بَلْ بِفَضْلِكَ. هَذَا الْحَدِيثُ بِالْمَعْنَى.

الْصَّبْرُ عَلَى الْبَلَاءِ

وَبَــادِرِ التَّوْبَــةَ كُــنْ شَــكَّارًا   لِــــنِعَمٍ وَلِلـــبَلَاءِ صَـــبَّارَا

قوله (وَلِلبَلَاءِ صَبَّارَا):

والصَّبر على البلاء هو: حبس النَّفس على ما أصابها مما لا يلائمها رضًا بتقدير المالك المختار من غير انزعاج.

وذكر الله في كتابه الصَّبر الجميل، وهو الذي لا شكوى لغير الله معه، وذكر الصَّفح الجميل وهو الذي لا عتاب بعده، وذكر الهجر الجميل وهو الذي لا أذية معه.

قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الصَّبْرُ ثَلَاثَةٌ: صَبْرٌ عَلَى الْمُصِيبَةِ، وَصَبْرٌ عَلَى الطَّاعَةِ، وَصَبْرٌ عَنْ الْمَعْصِيَةِ، فَمَنْ صَبَرَ عَلَى الْمُصِيبَةِ حَتَّى يَرُدَّهَا بِحُسْنِ عَزَائِهَا كَتَبَ اللَّهُ لَهُ ثَلَاثِمِائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ، وَمَنْ صَبَرَ عَلَى الطَّاعَةِ كَتَبَ لَهُ سِتَّمِائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ، وَمَنْ صَبَرَ عَنْ الْمَعْصِيَةِ كَتَبَ اللَّهُ لَهُ تِسْعَمِائَةِ دَرَجَةٍ، مَا بَيْنَ الدَّرَجَةِ وَالدَّرَجَةِ كَمَا بَيْنَ تُخُومِ الْأَرْضِ إِلَى مُنْتَهَى الْعَرْشِ مَرَّتَيْنِ».

ويعين على الصَّبر خصوصًا فيما يتعلق بالنَّاس كثرة الحلم، وانظر ما وقع من الجارية التي صبت الماء لسيدنا علي بن سيدنا الحسين رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُما.

الصَّبر الاستعانة بالله والوقوف معه تعالى بحسب الأدب، والصَّبر على الطَّلب عنوان الظَّفر، وعلى المحن عنوان الفرج، ومن أعظم الصَّبر الصَّبر على مخالفة شهوات النَّفس من حب الرِّئاسة والمحمدة والرِّياء.

والصَّبر وصف أولي العزم من الرُّسل عَلَيْهِمْ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ وهم أهل الهمم العالية، وقد ورد في الشُّكر والصَّبر من الآيات والأحاديث الشَّريفة ما لو تتبع لأدى إلى مزيد التَّطويل المخرج عن المقصود.

وبالجُملة يندرج تحتهما كل الدين من المأمورات والمنهيات، فناهيك بها مدحًا لمن اتصف بهما فتأمل. اهـ "الْخَرِيدَة" لِلدَّرْدِيرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وأمَّا الرِّضا: وهو الخُروج عن رضاء نفسه بالدُّخول في رضاء ربه، بالتَّسليم للأحكام الأزلية والتَّفويض للتدبيرات الأبدية، بلا إعراض ولا اعتراض.

الْإِيمَانُ بِالْقَضَاءِ وَالْقَدَرِ

وَكُلُّ أَمْرٍ فِي الْوَرَى تَرَاهُ بِقَدَرِ اللَّهِ مَعْ قَضَاهُ

وقوله (وَكُلُّ أَمْرٍ فِي الْوَرَى تَرَاهُ بِقَدَرِ اللَّهِ مَعْ قَضَاهُ) أي كل شيء كان في الخلق فهو بقدرة الله وإرادته، على وفق علمه القديم، سواء كان طاعة أو معصية، إيمان أو كفر، خير أو شرّ، بِدَلِيلِ قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦].

وَلَمَّا ذَكَرَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي حَدِيثِ أَرْكَانِ الإِيمَانِ، قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِالْقَدَرِ خَيْرِهِ وَشَرِّهِ حُلْوِهِ وَمُرِّهِ». قَالَ لَهُ بَعْضُ الصَّحَابَةِ: فَفِيمَ الْعَمَلُ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟، قَالَ: «اعْمَلُوا فَكُلٌّ مُيَسَّرٌ لِمَا خُلِقَ لَهُ».

وكان رجل كثير ما يُؤتى به إلى سَيِّدِنَا عُمَر بْن الْخَطَّاب رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ، لجلده في الخمر، فقال لسيدنا عمر: لما تحدني ألم يقدر الله لي ذلك؟، قال: أتؤمن بالقدر أنت؟، قال: نعم، قال: الجلد مقدر من الله تعالى، كما أن الشَّرب مقدر، وَ﴿لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ﴾ [الأنبياء: ٢٣].

وَقَالَ شَيْخُنَا الشَّيْخ مَجْذُوب مُدَّثِّر الْحَجَّاز رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَنَفَعَنَا بِهِ في "رسالته المتعلقة بالقضاء والقدر"، لما وفد عالم من مصر، وكان في الجامعة الإسلامية، وهذا العالم يدرس مذهب المعتزلة، أن قدرته تعالى أبرزت الأشياء على طبق إرادته وعلمه إلى الوجود، وهذا الإبراز المسمى بالإيجاد والاختراع، وهو المراد بتعلق القدرة القديمة، فتعلق

قدرة اللَّه تعالى على وفق إرادته تعلق إيجاد، وتعلق قدرتنا تعلق كسب واكتساب، والفعل يقع عند القدرة الحادثة لا بها. اهـ مع بعض تصرف.

وَانْظُرْ إِلَى الْمُعْتَزِلِيِّ الَّذِي نَاظَرَ الْأُسْتَاذَ أبا إِسْحَاقَ الْإِسْفَرَائِنِيِّ، وَكَانَتْ الْمُعْتَزِلَةُ يَعْتَقِدُونَ وَيَقُولُونَ بِاتِّحَادِ الإِرَادَةِ وَالْأَمْرِ، وَيَقُولُ أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ: الإِرَادَةُ شَيْء وَالأَمْرُ شَيْء آخَر، قَدْ يَجْتَمِعَانِ وَقَدْ يَفْتَرِقَانِ وَقَدْ يُوجدُ أَحدهُمَا، فَلَمَّا دَخَلَ الأُسْتَاذُ أَبُو إِسْحَاق عَلَى الْمُعْتَزِلِيّ، وَكَانَ جَالِسٌ مَعَ الْمَلِكِ، -أَيْ مِنْ مُلُوكِ ذَلِكَ الزَّمَن- فَقَالَ الْمُعْتَزِلِيُّ: سُبْحَانَ مَنْ تَنَزَّهَ عَنِ الْفَحْشَاءِ، وَيُرِيدُ مِنْ قَوْلِهِ ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ لَا يُرِيدُ الشُّرور وَالْقَبَائِحَ، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ: سُبْحَانَ مَنْ لَا يَقَعُ فِي مُلْكِهِ إِلَّا مَا يَشَاءُ. فَقَالَ: أَيَرِيدُ رَبُّكَ أَنْ يُعْصَى؟، فَقَالَ الْأُسْتَاذُ: أَوَيُعْصَى كُرْهًا عَلَيْهِ، قَالَ أي الْمُعْتَزِلِيّ: يَا هَذَا مَا قَوْلُكَ فِي مَنْ خَلَقَنَا فِيمَا نَخْتَارُ وَاسْتَعْمَلْنَا فِيمَا يَخْتَارُ، وَبَعْدَ ذَلِكَ إِنْ شَاءَ أَدْخَلَنَا الْجَنَّةَ أَوِ النَّارَ، أَفِي ذَلِكَ عَدَلَ أَمْ جَارَ؟، قَالَ: يَا هَذَا إِنْ كَانَ خَلَقَكَ فِيمَا تَخْتَارُ أَنْتَ فَقَدْ ظَلَمَكَ، وَإِنْ كَانَ خَلَقَكَ فِيمَا يَخْتَارُ هُوَ فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَأُلْجِمَ الْمُعْتَزِلِيّ حَجَرًا، وَانْفَضَّ الْمَجْلِسُ.

وَحَافِظِ الصَّلَاةَ فِي الأَوْقَاتِ وَاكْثِرِ الذِكْرَ فِي الحَضَرَاتِ

قَالَ السَّيِّدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ (وَحَافِظِ الصَّلَاةَ فِي الأَوْقَاتِ): أي أوقاتها المعلومة شرعًا، «وَلَمَّا سُئِلَ عَنْ أَفْضَلِ الْأَعْمَالِ؟، قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: الصَّلَاةُ لِوَقْتِهَا». وَفِي رِوَايَةٍ: «فِي أَوَّلِ الْوَقْتِ».

وقال الشيخ محمد حبيب الشنقيطي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إذا صلّى الإنسان أوَّل الوقت فذا لا يعيد في آخره جماعة، لأن أوَّل الوقت رضوان اللَّه وآخره عفو اللَّه، فلا يعرض الإنسان من رضاه إلى عفوه اهـ.

قوله (وَاكْثِرِ الذِكْرَ فِي الحَضَرَاتِ): أي تدارك الحضرات، والذِّكر له آداب ارجع لها في كتب القوم. وأما الإكثار من الذِّكر فمطلوب.

قال في "الرِّسالة"، وَقَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ: «مَا عَمِلَ ابْنُ آدَمَ مِنْ عَمَلٍ أَنْجَى لَهُ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ ذِكْرِ اللَّهِ».

قَالَ الشَّيْخُ الْجُزُولِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لأن الإنسان إذا أكثر من ذكر اللَّه تعالى، تجدد خشوعه وتقوَّى إيمانه وازداد يقينه وبعدت الغفلة عن قلبه، وكان لتقوى اللَّه أقرب وعن المعاصي أبعد.

وقال: وقد قال اللَّه تعالى حكم الذِّكر وفضله وكيفيته وكثرته، وعقوبة من أعرض عنه.

فأما حكمه وفضله: قَال تَعالَى: ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْرًا كَثِيرًا﴾ [الأحزاب: ٤١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ ﴾ [الأحزاب: ٣٥]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَاذْكُرُونِي أَذْكُرْكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٢]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الآيَاتِ.

وأما كيفيته: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَامًا وَقُعُودًا﴾ [آل عمران: ١٩١].

وأما صفته: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾ [البقرة: ٢٠٠]. وذكر الأب يكون بالتَّعظيم كذلك ذكر الله تعالى.

وأما فائدته: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُمْ مُبْصِرُونَ﴾ [الأعراف: ٢٠١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ [الرعد: ٢٨].

وأما عقوبة من أعرض عنه: فَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا﴾ [طه: ١٢٤]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَمَنْ يَعْشُ عَنْ ذِكْرِ الرَّحْمَنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، بمعنى عقوبة له على الغفلة عن الذِّكر.

ثُمَّ قَالَ الإِمَامُ الْقُشَيْرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَيْضًا: وَمَا قَالَهُ مُعَاذُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إنما أراد به أن يكون الذكر بالقلب، وهو إحضار الإنسان قلبه الخوف والخشوع، وتصوره لاطلاع ربه عليه، وعلى جميع أحواله ومتصرفاته، وأنه لا تخفى عليه خافية ولا يستر عنه مستور، فلذلك كان الذِّكر بالقلب أفضل من الذِّكر باللِّسان.

وقيل: الذِّكر باللِّسان أفضل من الذِّكر بالقلب. وقيل: إن كان ممن يقتدى به وكان في محضر النَّاس، فالذِّكر باللِّسان أفضل ليقتدى به، وإن كان ممن لا يقتدى به وكان بمحضر من النَّاس، فذكره بالقلب أفضل، وارتضى هذا القول الطَّبَرَانِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وقد جلب الإمام الْجُزُولِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ في فضل الذكر أحاديث كثيرة بِقَوْلِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَفْضَلُ الْعِبَادَاتِ الذِّكْرُ»، «وَأَفْضَلُ الذِّكْرِ الْخَفِيُّ».

قَالَ فِي "الصَّحِيحَيْنِ": «مَنْ ذَكَرَنِي فِي نَفْسِهِ ذَكَرْتُهُ فِي نَفْسِي، وَمَنْ ذَكَرَنِي فِي مَلَأٍ مِنَ النَّاسِ ذَكَرْتُهُ فِي مَلَأٍ خَيْرٍ مِنْهُ». وَقَالَ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَثَلُ الَّذِي يَذْكُرُ رَبَّهُ وَالَّذِي لَا يَذْكُرُ رَبَّهُ مَثَلُ الْحَيِّ وَالْمَيِّتِ».

قال عمُّنا الشَّريف حسن، نقلاً عن الشيخ محمد الحبيب الشنقيطي رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ: الذِّكر على سبعة أنحاء -أي

مقاصد- : ذكر اللِّسان بالثَّناء، وذكر اليد بالعطاء، وذكر العين بالبكاء، وذكر الأُذن بالإصغاء، وذكر القلب بالخوف والرَّجاء، و ذكر الرُّوح بالاستسلام والرِّضاء، وذكر الجسد بالوفاء، وأفضل الذِّكر عند أمره ونهيه الاستسلام، كَمَا قَالَ السَّكَنْدَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: متى جعلك في الظاهر ممتثلاً لأمره، ورزقك في الباطن الاستسلام لقهره، فقد أعظم عليك المِنَّة. قَالَ الشَّارِحُ: ﴿رِجَالٌ لَا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ﴾ [النور: ٣٧].

الصَّلَاةُ عَلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

وَلَا زِمَـنْ عَلَـى النَّبِـيِّ الصَّـلَاةْ   وَحُبَّــــهُ وَآلِــــهِ الثِّقَــــاةْ

قَوْلُهُ (وَلَا زِمَنْ): أَيْ دَاوِمْ عَلَيْهَا، (عَلَى النَّبِيِّ الصَّلَاةْ) وَهَذَا يَقُودُنَا إِلَى الْحَدِيثِ الَّذِي ذَكَرَهُ الإِمَامُ الْخَتْمُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي كِتَابِهِ "فَتْحُ الرَّسُولِ" الَّذِي نَقَلَهُ عَنِ السَّيِّدِ الْمَحْجُوبِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ أُبَيُّ بْنُ كَعْبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِذَا ذَهَبَ رُبْعُ اللَّيْلِ قَامَ، فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا اللَّهَ، جَاءَتِ الرَّاجِفَةُ تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ، جَاءَ الْمَوْتُ بِمَا فِيهِ. فَقَالَ أُبَيٌّ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، إِنِّي أُكْثِرُ الصَّلَاةَ عَلَيْكَ، فَكَمْ أَجْعَلُ لَكَ مِنْ صَلَاتِي؟، قَالَ: مَا شِئْتَ، قَالَ: الرُّبُعَ؟، قَالَ: مَا شِئْتَ، وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: النِّصْفُ؟، قَالَ: مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ لَكَ، قَالَ: الثُّلُثَيْنِ؟، قَالَ: مَا شِئْتَ وَإِنْ زِدْتَ فَهُوَ خَيْرٌ، قَالَ: أَجْعَلَ صَلَاتِي كُلَّهَا لَكَ؟، قَالَ: إِذًا تُكْفَى هَمَّكَ، وَيُغْفَرُ ذَنْبُكَ».

والمعنى إن لي زمن استقطعته في العبادة، فكم اجعل لك من هذا الزمن في الصلاة عليك؟، «قَالَ: مَا شِئْتَ...» إلخ الحديث.

قَوْلُهُ (وَحُبَّهُ وَآلَهُ الثِّقَاةْ): وَمَحَبَّتُهُ مِنَ الإِيمَانِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ، أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ، أَلَا لَا إِيمَانَ لِمَنْ لَا مَحَبَّةَ لَهُ».

وَلَمَّا قَالَ لَهُ سَيِّدُنَا عُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ. قَالَ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْهِ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ، حَتَّى مِنْ نَفْسِهِ الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيْهِ، قَالَ: لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ حَتَّى نَفْسِي الَّتِي بَيْنَ جَنْبَيَّ. قَالَ: الْآنَ يَا عُمَرُ». كَمُلَ إِيمَانُكَ اهـ بِالْمَعْنَى.

وَانْظُرْ إِلَى ثَوْبَانَ مَوْلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَانْظُرْ إِلَى سَعْدِ بْنِ الرَّبِيعِ الَّذِي اسْتُشْهِدَ فِي أُحُدٍ، وَانْظُرْ إِلَى الْمَرْأَةِ الَّتِي مَاتَ وَلَدُهَا وَأَبُوهَا وَزَوْجُهَا وَأَخُوهَا فِي أُحُدٍ، فَقَالَتْ: «مَا فَعَلَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟، قَالُوا لَهَا: هُوَ بِخَيْرٍ كَمَا تُحِبِّينَ، قَالَتْ: أَرُونِيهِ، فَلَمَّا رَأَتْهُ قَالَتْ لَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: كُلُّ مُصِيبَةٍ بَعْدَكَ جَلَلٌ». أَيْ بَسِيطَةٌ، وَالْجَلَلُ كَمَا يُطْلَقُ عَلَى الْقَلِيلِ يُطْلَقُ عَلَى الْكَثِيرِ أَوْ الْكَبِيرِ. اهـ انْظُرْ دَحْلَان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "السِّيرَةِ".

(وَآلِهِ الثِّقَاةْ) أَيْ مَحَبَّة آلِهِ، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَحِبُّوا اللَّهَ لِمَا يَغْذُوكُمْ بِهِ مِنْ نِعَمِهِ، وَأَحِبُّونِي لِحُبِّ اللَّهِ، وَأَحِبُّوا أَهْلَ بَيْتِي لِحُبِّي». وَيَكْفِيهِمْ شَرَف قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا الْمَوَدَّةَ فِي الْقُرْبَى﴾ [الشورى: ٢٣]. لَمَّا قَالُوا: نُكَافِئُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي مَا يُقَدِّمُهُ لَنَا، فَنَزَلَتْ هَذِهِ الْآيَةُ.

ومن المعلوم أَنَّ المُصَنِّف من آل البيت، كما أننا لا نقدر على مكافئة آل البيت الميرغني رَضِيَ اللَّهُ تَعَالى عَنْهُمْ، على ما قدَّموه لنا، بل لأهل السودان جميعًا، من إرشادٍ وعلومٍ ودلالةٍ إلى اللَّه ورسوله، فجزاهم عند اللَّه تعالى، كما نرجو اللَّه تعالى أن يجمعنا معهم ﴿فِي مَقْعَدِ صِدْقٍ عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ﴾ [القمر: ٥٥]، آمِينَ يَا رَبَّ الْعَالَمِينَ.

الْخَوْفُ وَالرَّجَاءُ وَالاِسْتِغْفَارُ وَالدُّعَاءُ

وَحَقِّقِ الرَّجَاءَ وَالخَوْفَ مَعَا   وَاكْثِر اسْتِغْفَارَ حَقٍّ وَالدُّعَا

(وَحَقِّقِ الرَّجَاءَ) وهو لغة: الأمل. وفي الاصطلاح: تعلُّق القلب بمرغوب فيه في المستقبل مع الأخذ في الأسباب، وهو ممدوحٌ شرعًا، وأما مع عدم الأخذ بالأسباب تمني، وهو مذموم شرعًا.

(وَالْخَوْفَ مَعَا) قَالَ الدَّرْدِيرُ فِي "الْخَرِيدَةِ" لا بد للعبد من الخوف والرجاء معًا، لأنهما كجناحي الطائر متى فقد أحدهما سقط، إلا أنه في حال الصِّحة والسَّلامة ينبغي تغليب جانب الخوف على جانب الرَّجاء، لأنه كالسَّوط ينساق به إلى الاعتناء بالعبادة، وبه تزول الرَّعُونات النَّفسية عن القلب إن شاء اللَّه تعالى.

فإذا نزل به المرض وأشرف على الموت فينبغي تغليب جانب الرجاء على الخوف، لأنه حال القُدوم على الكريم، والخوف هم وقلق لما هو آت، وأما الحزن فهو هم لما فات.

(وَاكْثِر اسْتِغْفَارَ حَقٍّ) أي أكثر استغفار اللَّه سبحانه وتعالى، كأنه إشارة إلى الآية الكريمة: ﴿اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا﴾ [نوح: ١٠]. قُلْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَتُوبُ إِلَيْهِ. أَوْ قُلْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ وَأَسْأَلُهُ التَّوْبَةَ. أَوْ قُلْ: أَسْتَغْفِرُ اللَّهَ الْعَظِيمَ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ. وَالْكَثْرَةُ مِنَ الثَّلَاثِمِائَةِ فَمَا فَوْقَ.

قَوْلُهُ (وَالدُّعَاء): لِأَنَّهُ «مُخُّ العِبَادَةِ» كَمَا وَرَدَ. قَالَ السَّكَنْدَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ: لَا يَكُـنْ تَـأَخّرُ أَمَـدِ العَطَـاءِ مَـعَ الإِلْحَـاحِ فـي الـدُّعَاءِ مُوجِبًـا لِيَأْسِكَ، فهُو ضَمِنَ لَكَ الإِجَابَةَ فِيمَا يَخْتَارُ لك، لَا فِيمَا تَخْتَارُ لِنَفْسِك، وَفِي الوَقْتِ الذي يُرِيدُ، لَا فِي الْوَقْتِ الَّذِي تُرِيدُ.

النَّهْيِ عَنِ الْكَبَائِرِ

وَاتْـــرُكِ الغِيبَـــةَ وَالنَّميمَـــةْ   وَالْكِبْرَ وَالعُجْبَ وَكُلَّ ذَمِيمَـةْ

وَقَوْلُهُ (وَاتْـرُكِ الغِيبَـةَ): وَهِـيَ: «ذِكْرُكَ أَخَاكَ بِمَا يَكْرَهُ. قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ فِي أَخِي مَا أَقُولُ؟، قَالَ إِنْ كَانَ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدِ اغْتَبْتَهُ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِيهِ مَا تَقُولُ فَقَدْ بَهَتَّهُ».

وَهِيَ مُحَرَّمَةٌ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالإِجْمَاعِ.

أَمَّا الْكِتَابُ: فَقَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَنْ يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ﴾ [الحجرات: ١٢].

وَأَمَّا السُّنَّةُ: فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِيَّاكُمْ وَالْغِيبَةَ فَإِنَّهَا أَشَدُّ مِنَ الزِّنَا». وَفِي رِوَايَةٍ: «أَشَدُّ مِنْ سِتَّةٍ وَثَلَاثِينَ زَنْيَةً فِي الْإِسْلَامِ». وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ أَرَادَ أَنْ يُفَرِّقَ حَسَنَاتَهُ يَمِينًا وَشَمَالًا فَلْيَغْتَبِ النَّاسَ». وَقَالَ عَلَيْهِ الصَّلَاةُ وَالسَّلَامُ: «الْغِيبَةِ تَأْكُلُ الْحَسَنَاتِ كَمَا تَأْكُلُ النَّارُ الْحَطَبَ الرَّقِيقَ».

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَتَدْرُونَ مَنِ الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي؟، قَالُوا: الْمُفْلِسُ فِينَا مَنْ لَا دِرْهَمَ لَهُ وَلَا مَتَاعَ لَهُ، فَقَالَ: إِنَّمَا الْمُفْلِسُ مِنْ أُمَّتِي الَّذِي يَأْتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ بِصَلَاةٍ، وَصِيَامٍ وَزَكَاةٍ، وَقَدْ شَتَمَ هَذَا، وَأَكَلَ مَالَ هَذَا، وَسَفَكَ دَمَ هَذَا، وَضَرَبَ هَذَا، فَيُعْطَى هَذَا مِنْ

حَسَنَاتِهِ، وَهَذَا مِنْ حَسَنَاتِهِ، فَإِنْ حَسَنَاتُهُ قَبْلَ أَنْ يُقْضَى مَا عَلَيْهِ، أُخِذَ مِنْ خَطَايَاهُمْ فَطُرِحَتْ عَلَيْهِ، ثُمَّ طُرِحَ فِي النَّارِ». أَخْرَجَهُ "مُسْلِمٌ" عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنِ اغْتِيبَ أَخُوهُ بِمَحْضَرِهِ فَنَصَرهُ، نَصَرَهُ اللَّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ».

وَقَالَ ابْنُ الْمُبَارَكِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لو كنت ممن يغتاب الناس لاغتبت أبويّ فإنهما أحق بحسناتي.

وروي عن الحسن رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أنه بلغه أن رجلاً تغتابه فأهدى له طبقًا من رطب، فقيل له في ذلك، فقال: بلغني أنه أهدى إليَّ حسناته، وهي أحب ما عنده، فأهديت له أحب ما عندي.

وَقَالَ مَالِكٌ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أدركت أناسًا بالمدينة لا عيوب لهم، فاشتغلوا بعيوب النَّاس، فأحدث النَّاس لهم عيوبًا، وأدركت أناسًا بالمدينة لهم عيوب، فسكتوا عن عيوب النَّاس، فسكت النَّاس عن عيوبهم.

ثم قال: وأشد الغيبة غيبة القراء، لأنها تجمع بين الغيبة وتزكية النَّفس والنِّفاق وكلها حرام. كأن يقول: أصلح اللّه فلانًا لقد أساء فيما جرى له، فيظهر من نفسه الدُّعاء له، ويقول بلسانه ما ليس في قلبه، لأن مراده أن يسمع النَّاس قبحه، وإلا دعا له سرًا أو كتم معصيته، أو

يقول: الحمد لله الذي لم يبتلنا بالدخول على السُّلطان لطلب الدُّنيا وهو يعرّض لغيره.

والمستمع للغيبة شريك للمُتكلِّم بها، فيجب على من سمعها أن يقوم من ذلك الموضع الذي سمعها فيه إن أمكنه ذلك، وإن لم يمكنه نهاهم عن ذلك بقول غليظ مظهرًا في وجهه ذلك، فإن انتهوا فهو المطلوب، وإلا أبغضهم في قلبه، وكذّبهم لأنهم فسَّاق، فإن قال لهم: دعوا غيبة الناس، ومقصوده إظهار الورع، فلا يخرجه ذلك عن الغيبة. قال بعض العلماء: الغيبة فاكهة القراء، ومزبلة الأتقياء، ومراتع النَّاس.

وتباح الغيبة في مواضع: التَّظلم، الاستعانة، الاستفتاء، الاستغاثة، التحذير، التعريف، فسق المجاهر.

ثم قال الإمام الْجُزُولِيّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: ودواء الغيبة بالتَّفكر في الوعيد الوارد فيها من تبديد حسناته، وبالتَّفكر في عيوب نفسه فيشغله ذلك عن عيوب النَّاس. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «طُوبَى لِعَبْدٍ شَغَلَتْهُ عُيُوبُهُ عَنْ عُيُوبِ النَّاسِ».

اهـ "مَيَّارَة شرح ابن عاشر" رَضِي اللَّهُ عَنِ الْجَمِيعِ.

وقوله (وَالنَّمِيمَة) وهي: أن ينقل الإنسان إلى غيره عن غيره ما يكره المنقول إليه سماعه أو المنقول عنه التَّحدث به، سواء كان ذلك بالكلام أو بالكتابة أو بغيرها.

وهي محرمة بالكتاب والسنة والإجماع.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَهِينٍ هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ﴾ [القلم: ١٠-١١]. وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ﴾ [الهمزة: ١]. وهو الذي يعيب النَّاس ويفسد بينهم.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَشَدّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمَشَّاءُونَ بِالنَّمِيمَةِ وَالْقَاطِعُونَ بَيْنَ الْإِخْوَانِ». وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا يَدْخُلُ الْجَنَّةَ قَتَّاتٌ». وَالقَتَّاتُ النَّمَّامُ.

والإجماع على تحريمها لأنها من التَّقاطع والتَّدابر المنهي عنهما. وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَقَاطَعُوا، وَلَا تَدَابَرُوا، وَلَا تَحَاسَدُوا، وَكُونُوا عِبَادَ اللَّهِ إِخْوَانًا».

ومن نقل إليه ما يكره، فيجب عليه خمسة أشياء: ألا يصدق النَّاقل لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوا﴾ [الحجرات: ٦]. وأن ينهاه عن ذلك لأنه من باب النَّهي عن المنكر، وأن يبغضه في الله تعالى، لأن الله تعالى يبغض النمَّام، والحب في الله والبغض في الله من الإيمان، وألا يفحص عن حقيقة ما قال له لِقَوْلِهِ

تَعَالَى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا﴾ [الحجرات: ١٢]، وهذا تجسس، وألا يعاتب بذلك المنقول عنه لأن في ذلك نميمة.

وقد روي عن بعض الصَّالحين أنه دخل عليه رجل، فقال له: إن فُلانًا، قال فيك كذا وكذا، فقال له: يا هذا طالت غيبتك عني وألزمتني ثلاثه أشياء: شوشتني وشغلت خاطري بعد أن كان فارغًا، وبغضت إليَّ أخي بعد أن كان حبيبي، وأدخلت الشَّك فيك بعد أن كنت عندي مأمونًا.

قال الشَّيخ: النَّميمة أشد من الغيبة، لأن فيها الغيبة وزيادة.

وكذلك يحرم سائر أنواع الباطل ككثرة المزاح، لأنه يؤدي إلى ذهاب الهيبة والوقار، ولذا قال بعض الحكماء: لا تمازح الشَّريف فيحقرك، ولا الدَّنئ فيتجاسر عليك. ومن الباطل تزكية النَّفس.

قوله (وَالْكِبْرَ): أي واترك الكبر، لأنه مذمومٌ شرعًا، وكل مذموم ينبغي للعاقل أن يتركه، فَقَدَ قَالَ تَعَالَى: ﴿أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ﴾ [النحل: ٢٣]، أي المتحلين بالكبر على العباد، فكيف بمن يستكبر عن الإيمان؟، ولأن الكبر من أخبث الذُّنوب وأشدها قبحًا.

وَفِي الْحَدِيثِ الْقُدْسِيّ: «الْكِبْرِيَاءُ رِدَائِي، وَالْعَظَمَةُ إِزَارِي فَمِنْ نَازَعَنِي فِي وَاحِدٍ مِنْهُمَا قَذَفْتُهُ فِي نَارِي» رَوَاهُ أَحْمَدُ. وَفَسَّرَهُ النَّبِيُّ

صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِقَوْلِهِ: «الْكِبْرُ بَطَرُ الْحَقِّ وَغَمْطُ النَّاسِ» رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

قوله (وَالعُجْبَ) أي اترك العجب لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨]. وَفَسَّرَهُ الْمُصَنِّفُ فِي كِتَابِهِ "تَاج التَّفَاسِيرِ": أي لا تمل وجهك متكبرًا عليهم. ﴿وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا﴾ خُيَلاء. ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ أي متخيل في مشيه. فَخُور أَيْ: يَفْتَخِرُ عَلَى النَّاسِ.

وَفِي الْحَدِيثِ: «بِئْسَ العَبْدُ تَخَيَّلَ وَاخْتَالَ وَنَسِيَ الكَبِيرَ الْمُتَعَالِ» رَوَاهُ التِّرْمِذِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ. وَفِي الْحَدِيثِ مَرْفُوعًا: «إِنَّ اللَّهَ أَوْحَى إِلَيَّ أَنْ تَوَاضَعُوا، حَتَّى لَا يَبْغِيَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ، وَلَا يَفْخَرَ أَحَدٌ عَلَى أَحَدٍ». رَوَاهُ مُسْلِمٌ.

وينبغي للسَّاري التَّوسط بين الدَّبيب والإسراع، وفي الحديث مرفوعًا: «سُرْعَةُ الْمَشْيِ تُذْهِبُ بَهَاءَ الْمُؤْمِنِ». وَفِي أُخْرَى: «بَهَاءَ الْوَجْهِ».

قوله (وَكُلَّ ذَمِيمَةْ) أي ما يذم به الإنسان، وهو من عطف العام على الخاص. اهـ "الشيخ صالح رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ" مع بعض تصرف.

كَحَسَدٍ كَذِبٍ مَعَ الرِّيَاءِ وَكُلَّ مَا يُبْعِدْ عَنِ الْعُلَاءِ

(كَحَسَدٍ) مثال لكل ذميمة. الحسد: هو تمني زوال نعمة الغير. وقال بعضهم: الحاسد جاحد لأنه لا يرضى بقضاء الواحد. وقيل: الحسود لا يسود.

وَفِي قَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾ [الأعراف: ٣٣]. قيل: ما بطن منها الحسد. وفي بعض الكتب: الحاسد عدو نعمتي. وقيل: أثره يتبين في الحاسد قبل أن يتبين في المحسود.

وَفِي بَعْضِ الْآثَارِ: إِنَّ فِي السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ مَلَكًا يَمُرُّ بِهِ عَمَلُ عَبْدٍ لَهُ ضَوْءٌ كَضَوْءِ الشَّمْسِ، فَيَقُولُ: قِفْ، فَأَنَا مَلَكُ الْحَسَدِ أَضْرِبُ بِهِ وَجْهَ صَاحِبِهِ فَإِنَّهُ حَاسِدٌ.

وَقَالَ مُعَاوِيَةُ: كُلُّ إِنْسَانٍ أَقْدَرُ عَلَى أَنْ أُرْضِيَهُ إِلَّا الْحَاسِدَ فَإِنَّهُ لَا يُرْضِيهِ إِلَّا زَوَالُ النِّعْمَةِ. وَقَالَ أَيْضًا: ليس في خِلال البشر خلة أعدل من الحسد، تقتل الحاسد قبل المحسود.

وَقِيلَ: إِنَّ سَيِّدَنَا مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ رَأَى رَجُلاً عِنْدَ الْعَرْشِ، فَغَبَطَهُ، فَقَالَ: مَا صِفَتُهُ؟، فَقِيلَ: كَانَ لَا يَحْسُدُ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ.

(فَائِدَةٌ): قَالَ قُصَيّ أَحَدُ أَجْدَادِ النَّبِيِّ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: من أكرم لئيمًا شاركه في لؤمه، ومن لم تصلحه الكرامة أصلحه الهوان، ومن استحسن قبيحًا نزل إلى قبحه، ومن طلب فوق قدره استحق الحرمان، والحسود هو العدو الخفي. وهذا هو الشاهد. اهـ "دحلان".

أما أمراض القلب فكثيرة جدًّا، ولذا الاحتياج للطبيب الماهر فرض عين.

وأما آفات اللِّسان فقد أوصلها الإمام الْغَزَالِيّ رَضِيَ اللّٰهُ عَنْهُ إلى أكثر من عشرين آفة، فارجع إليها إن شئت في "إحياء علوم الدين" الجزء الثالث وهو ربع المهلكات.

قوله (كَذِب) وحقيقته الإخبار عن الشيء على غير ما هو عليه، والصِّدق ضده، والشَّك في الحديث كالكذب فيه.

قَالَ مَالِكٌ: مَنْ حَدَّثَ بِكُلِّ مَا سَمِعَ فَهُوَ كَاذِبٌ.

فينبغي ألا يحدث الإنسان إلا بما علمه قطعًا أو سمعه أو نقل إليه نقلاً متواترًا، ثم إن الكذب سهوًا لا إثم فيه ولا حرج، لِقَوْلِهِ صَلَّى اللّٰهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رُفِعَ عَنْ أُمَّتِي الْخَطَأُ وَالنِّسْيَانُ».

وإن كان عمدًا فهو حرام بإجماع الأُمَّة، وإن كان تعرض له أحكام الشَّريعة الخمسة باعتبار متعلقاته، والدَّليل على تحريمه الكتاب والسُّنَّة والإجماع.

أَمَّا الْكِتَابُ لِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَلْ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [آل عمران: ٦١]. وَأَمَّا السُّنَّةُ فَقَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «ثَلَاثَةٌ مَنْ كُنَّ فِيهِ فَهُوَ مُنَافِقٌ: مَنْ إِذَا حَدَّثَ كَذَبَ، وَإِذَا وَعَدَ أَخْلَفَ، وَإِذَا اؤْتُمِنَ خَانَ». ومعناه منافق في العمل لا في الاعتقاد.

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا: «إِيَّاكُمْ وَالْكَذِبَ، فَإِنَّهُ يَهْدِي إِلَى الْفُجُورِ، وَإِنَّ الْفُجُورَ يَهْدِي إِلَى النَّارِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَكْذِبُ وَيَتَحَرَّى الْكَذِبَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ كَذَّابًا، وَعَلَيْكُمْ بِالصِّدْقِ فَإِنَّ الصِّدْقَ يَهْدِي إِلَى الْبِرِّ، وَإِنَّ الْبِرَّ يَهْدِي إِلَى الْجَنَّةِ، وَإِنَّ الرَّجُلَ لَيَصْدُقُ وَيَتَحَرَّى الصِّدْقَ حَتَّى يُكْتَبَ عِنْدَ اللَّهِ صِدِّيقًا». إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا وَرَدَ.

والإجماع على أن الكذب محرَّم، فمن أباحه استفسر، فإن أباح ما هو حرام منه فإنه يستتاب ثلاثًا، فإن تاب وإلا قتل، فحكمه في الجملة التَّحريم.

ثم قد يكون واجبًا، مثل أن يكذب لإنقاذ نفس أو مال، كما إذا هرب إنسان من ظالم إلى جهة فيسأله عنه، فيقول له جاز يمينًا وهو

على الشَّمال، فالكذب في هذا واجب يؤجر عليه، فإن صدق أثم، وعليه أن يحلف إذا طلب منه اليمين، ويلغز بيمينه، ولا يلزمه الطَّلاق إن حلف، واللَّغز أن ينوي في يمينه طلاق الدَّابة أو الحجر من أعلى إلى أسفل. واختلف إذا حلف ولم يلغز فيه يمينه، هل يلزمه الطلاق أم لا؟. على قولين سببهما هل هو كالمكره أم لا.

ويكون حرامًا وهو الكثير فيه الكذب، لقطع حق مخلوق أو على وجه المزاح للانبساط وكلاهما حرام، والأول أشد من الثَّاني، والتَّوبة من الأول الاستحلال من المظالم والنِّية ألا يعود، ومن الثَّاني النَّدم والنَّية ألا يعود.

ويكون مستحبًا وهو الكذب على الكفَّار، بأن يقول لهم: إن المسلمين تهيئوا للقاكم بكثرة العدد والعُدد، وتأمر عليهم البطل فلان ونحو ذلك.

ويكون مكروهًا وهو الكذب للزَّوجة.

ومباحًا وهو الكذب للصلاح بين المسلمين إذا وقعت بينهم شحناء بل في هذا مندوب.

والزُّور أيضًا: وهو الإخبار بالشيء على غير ما هو عليه، إلا أنه خاص بالشَّهادة، مشتق من زور الصدر وهو إعوجاجه، لا من تزوير الكلام الذي هو تحسينه.

ودليل تحريمه من الكتاب، وَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَالَّذِينَ لَا يَشْهَدُونَ الزُّورَ﴾ [الفرقان: ٧٢]. ﴿وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنْكَرًا مِنَ الْقَوْلِ وَزُورًا﴾ [المجادلة: ٢]. وَمِنْ السُّنَّةِ وَهُوَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُنَبِّئُكُمْ بِأَكْبَرِ الْكَبَائِرِ؟. قَالُوا: بَلَى يَا رَسُولَ اللَّهِ، قَالَ: الْإِشْرَاكُ بِاللَّهِ، وَعُقُوقُ الْوَالِدَيْنِ، وَشَهَادَةُ الزُّورِ أَوْ قَوْلُ الزُّورِ». وأجمعت الأمة على تحريمه.

والفحشاء: مأخوذ من فحش الشيء إذا ظهرت قباحته، واشتهرت قولاً كان أو فعلاً، والمراد هنا القول القبيح. قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّ اللَّهَ يَكْرَهُ الْفَاحِشَ الْبَذِيءَ». وهو الذي لا يكني عن الألفاظ المتفاحشة، فيدخل فيه كل ما يستحيا منه أن يذكر بمحضر أهل الفضل والصلاح، ومن يجب توقيره كالآباء والإخوة كذكر ألفاظ الجماع بألفاظ العامة السُّفهاء والسَّفلة من النَّاس. اهـ "مَيَّارَة شرح ابن عاشر" رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَعَنِ الْجَمِيعَ.

قوله (مَعَ الرِّيَاءِ): الرِّياء: هو الشرك الخفي.

قِيلَ: «لَمَّا يَصْعُدِ الْعَمَلُ فَوْقَ السَّمَاوَات، يَقُولُ مَلَكُ الرِّيَاءِ: أَمَرَنِي رَبِّي أَلَا أَدَعُ عَمَلاً صَاحِبَهُ الرِّيَاء، يُجَاوِزَنِي إِلَى غَيْرِي، يَقُولُ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى: أَنْتُمُ الْحَفَظَةُ عَلَى عَمَلِ عَبْدِي، وَأَنَا الرَّقِيبُ عَلَى مَا فِي نَفْسِهِ، وَإِنَّهُ لَمْ يُرِدْنِي بِالْعَمَلِ، وَأَرَادَ بِهِ غَيْرِي، رَدُّوهُ عَلَيْهِ فَعَلَيْهِ

لَعْنَتِي، فَتَقُولُ الْمَلَائِكَةُ: عَلَيْهِ لَعْنَتُكَ وَلَعْنَتُنَا، فَتَلْعَنُهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعِ وَمَنْ فِيهِنَّ».

وَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا رَآءَ الْعَبْدُ بِعَمَلِهِ، يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى لِلْمَلَائِكَةِ: انْظُرُوا إِلَى عَبْدِي كَيْفَ يَسْتَهْزِئُ بِي وَلَا يَسْتَحِي مِنِّي».

والإجماع أن الرِّياء حرامٌ.

وعلامات الرِّياء ثلاثة: الكسل، التَّقليل من العمل في الوحدة والنَّشاط، وتكثير العمل بين النَّاس، والزِّيادة في العمل إذا أثنى عليه والنَّقص منه إذا ذم.

وأما معالجته: وتطهير القلب منه: فهو أن يزيل من قلبه أربعة أشياء: حب المحمدة، وخوف المذمة، استجلاب المنفعة، ورفع المضرة.

ويعلم أن النَّافع والضَّار إنما هو اللَّه تعالى، وأنه لو اجتمع أهل السماوات والأرض على أن ينفعوه بما لم يقدره اللَّه له لم يقدروا على ذلك، وكذلك عكسه، فإذا اعتقد ذلك تقوى يقينه وسلم من الرِّياء. ولو دخل على الإنسان الرِّياء في أثناء العبادة فالمشهور أنه لا يأثم، وقيل إن عالجه وزال فلا إثم عليه وإن تركه وتمادى أَثِمَ.

وقد روي عن بعض العلماء: أنه لازم الصَّف الأول أربعين سنة، فلما كان ذات يوم عاقه عائق عنه، فصلَّى في الصَّف الأخير فأصابه

من ذلك خجلاً، فأعاد كل ما صلَّى في الصَّف الأول، لما رأى أنه دخله في ذلك الرِّياء.

وقد يدخل على الإنسان الرِّياء في بيته وهو وحده، مثل أن ينظر في كتبه فيجد فيها مسألة غريبة أو مشكلة فيحفظها ليلقيها على غيره فيمدح بذلك، وَلِذَلِكَ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «تَخَوَّفْتُ عَلَى أُمَّتِي الشِّرْك، أَمَا إِنَّهُمْ لَا يَعْبُدُونَ صَنَمًا وَلَا وَثَنًا وَلَا شَمْسًا وَلَا قَمَرًا وَلَا حَجَرًا، وَلَكِنَّهُمْ يُرَاءُونَ بِأَعْمَالِهِمْ». قاله الشَّيخ محمد مَيَّارَة في "شرح ابن عاشر" انتهى باختصار.

(وَكُلَّ مَا يُبْعِدْ عَنِ الْعُلَاءِ) أي كل شيء يبعدك عن مقامات الرِّجال، وهي مبدأها الإخلاص والصِّدق في التَّوجه إلى الله تعالى. وأن تعلم يقينًا أن عملك لا يوصلك إلى شيء، وإنما إذا حصل إدراك مقام من المقامات هو من فضل الله تعالى، كَمَا قَالَ السَّكَنْدَرِيُّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي "حِكَمِهِ": عِنَايَتُهُ فِيكَ لَا لِشَيْءٍ مِنْكَ، وَأَيْنَ كُنْتَ حِينَ وَجَّهَتْكَ عِنَايَتُهُ وَقَابَلَتْكَ رِعَايَتُهُ، لَمْ يَكُنْ فِي أَزَلِهِ إِخْلَاصُ أَعْمَالٍ وَلَا وُجُودُ أَحْوَالٍ، بَلْ لَمْ يَكُنْ هُنَاكَ إِلَّا مَحْضُ الْإِفْضَالِ وَعَظِيمُ النَّوَالِ.

وَحَضِّرِ الفُؤَادَ فِي الأَعْمَالِ لِتَرْتَقِي مَرَاتِبَ الرِّجَالِ
وَتَحْظَ بِالفَتْحِ مِنَ الرَّحْمَنِ وَتَهْنَى بِالأَمْنِ مِنَ الدَّيَّانِ

(وَحَضِّرِ الفُؤَادَ فِي الأَعْمَالِ) أي بالنِّية الصَّادقة، كَمَا قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنَّمَا الْأَعْمَالُ بِالنِّيَّاتِ». (لِتَرْتَقِي مَرَاتِبَ الرِّجَالِ) أي بالنِّية الصَّادقة الصَّالحة كما أشرنا آنفًا.

(وَتَحْظَ بِالفَتْحِ مِنَ الرَّحْمَنِ) أي المنعم بجلائل النعم، ويحصل لك القدح المعلى من تلك الرَّحمة أي يكون حظك وافرًا. (وَتَهْنَى بِالأَمْنِ مِنَ الدَّيَّانِ) أي تُسرّ بالأمن أي بأمانك من الدَّيَّان، أي من الإله تبارك وتعالى الخلاَّق الدَّائم، ختم اللَّه لنا بخير الختام.

خَيْرُ المَنَاهِجِ إِتِّبَاعُ المُصْطَفَى صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ

خَيْرُ المَنَاهِجِ إِتِّبَـاعُ المُصْـطَفَى   لَازِمْ عَـلَيْهِ صَلَّى مُعْطِي الـــوَفَا
عَلَـــى النَّبِـــيِّ وَآلِـــهِ وَالصَّـــحْبِ   مَا انْهَلَّ غَيْثٌ أَوْ جَرَى فِي السُّحْبِ

(خَيْرُ المَنَاهِجِ إِتِّبَاعُ المُصْـطَفَى): وَفِي "الشِّفَا": عَنْ سَيِدِّنَا عَلِيّ كَـرَّمَ اللَّهُ وَجْهَـهُ، قَـالَ: سَـأَلْتُ رَسُـولَ اللَّهِ صَـلَّى اللَّهُ عَلَيْـهِ وَسَـلَّمَ عَـنْ طَرِيقَتِهِ الْمَبْنِيَّة عَلَى حَقِيقَتِهِ، قَالَ: الْمَعْرِفَةُ رَأْسُ مَالِي، وَالْعَقْلُ أَصْلُ دِينِي، وَالْحُبُّ أَسَاسِي، وَالشَّوْقُ مَرْكَبِي، وَذِكْرُ اللَّهِ أَنِيسِي، وَالثِّقَةُ بِاللَّهِ كَنْزِي، وَالْحُزْنُ رَفِيقِـي، وَالْعِلْـمُ سِـلَاحِي، وَالصَّـبْرُ رِدَائِـي، وَالرِّضَـاءُ غَنِيمَتِـي، وَالْفَقْـرُ فَخْـرِي، وَالزُّهْـدُ حِرْفَتِـي، وَالْيَقِـينُ قُـوَّة رُوحِـي، وَالصِّدْقُ شَفِيعِي، وَالطَّاعَةُ حَسْبِي، وَالْجِهَادُ خُلُقِي، وَقُرَّةُ عَيْنِي فِي الصَّلَاةِ». وَفِي رِوَايَةٍ: «وَثَمَرَةُ فُؤَادِي فِي ذِكْرِ رَبِّي، وَغَمِّي لِأَجْلِ أُمَّتِي، وَشَوْقِي إِلَى رَبِّي».

قوله (لَازِمْ عَلَيْهِ صَلَّى مُعْطِي الْوَفَـا): هذه الجُملة إخباريَّة لفظًا إنشائيَّة معنًى، الْمَعْنَى إِنْشَاء الصَّلَاةِ عَلَيْهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

(عَلَى النَّبِيّ وَآلِهِ وَالصَّـحْبِ) قد مرَّ الكلام عليهم مستوفي ارجع إليه إن شئت. (مَا انْهَلَّ غَيْثٌ أَوْ جَرَى فِي السُّحْبِ) ختم بها لأن العادة الختم بها، لأن الصلاة عليه مقبولة فما وقع بينهما لا يرد.

ختم اللَّه لنا ولكم بالإيمان الكامل، وكان الختام من هذا الشَّرح بتوفيق اللَّه تعالى ومعونته لي، على يد الفقير إليه تعالى مبارك محمد سعيد عثمان أحمد بركات، ليلة الجمعة واحد محرم ١٤٤٢ من هجرة سيد المُرسلين صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، المُوافق العشرون من أغسطس ٢٠٢٠م.

تَقْرِيظُ الشَّيْخِ دِيَاب أَحْمَد دِيَاب

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

بِهِ الإِعَانَةُ بَدْءًا وَخَتْمًا، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سِيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، ذَاتًا وَوَصْفًا وَاسْمًا

أما بعد: بكل سرور وحبور وسعادة أكيدة قد اطلعت على ذلك السِّفر الفريد المُعبّر عنه بـ"فتح الرشيد في شرح منجية العبيد" لشيخنا وأستاذنا وفخرنا وعزِّنا الخليفة الجليل الشيخ مبارك ابن الخليفة محمد سعيد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، فقد حباه الله بمحبة الأولياء والعلماء ومنهم ختم العارفين سيدي الإمام الختم رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وشيخنا مبارك له ذكاء خارق وقريحة متقدة وفكر ثاقب، كل ذلك ساعده في شرح هذا المؤلف العظيم، فبذل فيه عُصارة جهده، فكان سبكه جميلاً وشرحه سهلاً ميسرًا للجميع، وخاصة خلفاء الطريقة الختمية وشبابها فهم في أمس الحاجة لذلك، وأيضًا شيوخ وشباب الأدهمية الذي هو منهم وإليهم وفخراً لهم، ونحن نبارك جهده المقدّر، ونثني عليه فهو مقبول لا شكّ، ولكن نطلب من الله عزّ وجلّ له الحفظ والزيادة والحماية والرعاية، وحفظ الآل والذُّرية، وتحقيق الآمال ومباركة الأعمال في الدِّين والدُّنيا، إنه نعم المولى ونعم النَّصير، وبالإجابة جدير، وَصَلَّى اللَّهُ عَلَى سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَآلِهِ وَصَحْبِهِ وَسَلَّمَ.

محرم ١٤٤٢هـ - ١٥ سبتمبر ٢٠٢٠م

دياب أحمد دياب - حلقة الأدهمية المالكية الخرطوم

بسم الله الرحمن الرحيم

به الإعانة الحمد لله بدءاً وختماً وصلى الله على سيدنا ذاتا ووصفا واسما
أما بعد فبكل سرور وحبور وسعادة أكيدة قد اطلعت على
ذلك السفر الفريد المعبر عنه بالفتح الرشيد في شرح منجية
العبيد لشيخنا وأستاذنا ومحترمنا ومرشدنا الخليفة الجليل الشيخ
مبارك ابن الخليفة محمد سعيد رضي الله عنهما فقد حباه الله بمحبة
الأولياء والعلماء ومنهم ختم العارفين سيدي الإمام الختم رضي الله عنه
وشيخنا مبارك له ذكاء خارق وقريحة متقدة وفكر ثاقب كل ذلك
ساعده في شرح هذا المؤلف العظيم فبذل فيه عصارة جهده
فكانت سبكه جميلة وشرحه سهل ميسر للجميع وخاصة فقراء
الطريقة الختمية وشبابها فهم في أمس الحوجة لذلك
وأيضا شيوخ وشباب الأزهرية الذي هو منهم وإليهم وفخرا
لهم ونحن نبارك جهده المقدر ونثني عليه فهو مشكور
لا شك ولكن نطلب من الله عز وجل له الحفظ والزيادة
والحماية والرعاية وحفظ الآل والذرية وتحقيق الآمال
ومباركة الأعمال في الدين والدنيا إنه نعم المولى ونعم
النصير وبالإجابة جدير وصلى الله على سيدنا محمد وآله
وصحبه وسلم.

محرم ١٤٤١
٢٠١٩/٩/١٥



دياب احمد دياب
خليفة
الأزهرية المالكية
الخرطوم

فِهْرَس كِتَابِ فَتْحِ الرَّشِيدِ